311

HARLEQUIN

روايات أحلام

لن ينتهي الرحيل

ألكسندرا سكوت

www.elromancia.com
مرمورية

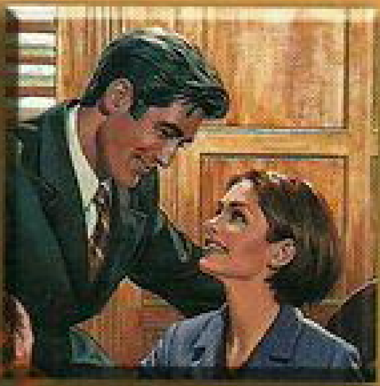

لن ينتهي الرحيل

إنه زاكاري ماغواير، لم يضعف تأثير هذا الرجل. فما زال سحره مدمراً كما كان في أحلامها. وما زالت كلماته الأخيرة في بالها كما كانت حين همس في أذنها، "سأعود في أسرع وقت ممكن. ما من شيء سيفرقنا!"...

كانت هذه آخر كلمات سمعتها منه... منذ خمس سنوات! والآن عاد ليستولي على شركتها... وتساءلت آبي، "أي لعبة تلعبها الآن يا زاكاري، ولماذا أجبرتني أن أقطع آلاف الأميال حتى أصل إليك، هل لمجرد أن تشعر بسلطتك وقوتك!"

لبنان:	2500ل.ل.	البحرين:	1دينار
سوريا:	75ل.س.	السعودية:	10ريال
الأردن:	1.5دينار	مصر:	8جنيه
الكويت:	750فلس	المغرب:	15درهم
الإمارات:	10دراهم	تونس:	2دينار
قطر:	10ريال	عمان:	1ريال

ISBN 9953-15-187-3

ألكسندرا سكوت

ولدت في سكوتلندا وعاشت فيها حتى التقت زوجها الذي كان يخدم الجيش البريطاني؛ وتبع ذلك ٢٥ سنة من السفر والترحال في الشرق الأقصى وأوروبا الغربية. ثم استقرا في شمال يوركشير. وبتشجيع من زوجها راحت ألكسندرا تكتب الروايات العاطفية. وهي تهتم بالحديقة والتطريز وتستمتع برفقة عائلتها، إلى جانب الكتابة.

١ ـ لقاء مدمّر

زاكاري ماغواير! تبّاً له! إنه مدمّر في الواقع كما كان في أحلامها. لم يضعف تأثير هذا الرجل فيها، وتأثير الذكريات غير المرحّب فيها رغم مرور الوقت. كما لا يمكن لأيّ شيء أن يخفف من ضربات قلب آبي المتسارعة وأن يخمد إحساسها بقرب وقوع مصيبة.

نزلت الدرجتين اللتين تؤديان إلى البهو، وقبلت كأس العصير الذي قدّمه لها أحد الزملاء كما لو أنّ لا همّ لديها في الحياة... كما لو أنها لا تحاول بشدّة أن تتغلب على طعنة الألم غير المتوقّعة التي شعرت بها.

ولا يعني هذا أنّ الألم الذي تسببت به علاقتها القصيرة الأمد بزاك ماغواير غير متوقّع. ولعل زوج أمها، المزيّف والمخادع، نطق ببساطة بالحقيقة حين قال لها: «إن قصص الحب التي نعيشها في العطلات هي جزء من تجارب الحياة، ولا ينبغي أخذها على محمل الجدّ. وعلينا أن نتوقّع انفطار قلوبنا مرّة على الأقل، لكننا نشفى من هذه الجراح سريعاً».

إلاّ أنها لم تُشفَ من حبها لزاك ماغواير، فكلماته الأخيرة ووعوده الكاذبة لا تزال في بالها كما كانت حين همس بها في أذنها: «سأعود في أسرع وقت ممكن، وما من شيء سيفرّقنا».

كانت هذه آخر كلمات سمعتها منه. اللعنة عليه!.

استرخت آبي قليلاً، وأدارت ظهرها للمجموعة التي شكّلت محط

www.elromancia.com

أنظار الجميع، في محاولة منها لحماية نفسها من رغبتها المتزايدة في الالتفات إلى تلك الناحية، بالرغم من خوفها الدائم من أن تلتقيه. فلقاؤه أمر لن تحتمله، وإن كان لا بدّ منه في النهاية. فزاكاري ماغواير، الذي كان في أحد الأيام حبيب آبي جرفيس، هو الآن مدير الشركة التي اشترت «زينيث»، الشركة التي كانت لتصبح ملكها لو أحسن زوج أمها التصرّف.

رفعت آبي كأس العصير إلى شفتيها مجدداً، لكنها فوجئت بها فارغة، فالتفتت حولها تبحث عن مكان تضعها فيه، وهزّت رأسها بالرفض حين عرض عليها نادل إعادة ملء كأسها.

حاول بن تيرنر إقناعها، وهو يتأمل بإعجاب تسريحة شعرها الجديدة: «هيا يا آبي، حاولي أن تسترخي لمرة واحدة على الأقل يا حبي».

وانتقلت نظراته إلى فمها فيما أضاف: «أقسم أني لم أرك تشربين بهذه السرعة من قبل».

ـ لكنك لا تعرفني جيداً، أليس كذلك يا بن؟

جاء صوتها خافتاً، بطيئاً، متميزاً بلكنة فرنسية فاتنة اكتسبتها بعد أن أمضت العديد من سنوات عمرها الأولى في فرنسا.

التفت إليها متأملاً وقد رفع حاجبيه ثم قال: «إذا أردت تغيير هذا الواقع في أيّ وقت. . . ».

وقيّمتها عيناه الرماديتان بثقة من اعتاد ايقاع النساء في شباكه، ثم تابع كلامه: « . . . فأعلميني».

لم تجبه آبي، فهو لن يفهم رفضها له ولن يتقبّل فكرة أنها لن تفكر فيه، حتى وإن لم يكن متزوجاً وأباً لولدين صغيرين. أشاحت بنظرها عنه، فرمقتها بيفرلي كران بنظرة ودّية متعاطفة. عندئذ، ابتسمت آبي

وهزّت رأسها، لكنها عادت وندمت على ذلك حين همست المرأة الشابة بلهجة متواطئة: «يا إلهي يا آبي، مدير الشركة الجديد وسيم للغاية، أليس كذلك؟ هل تحدّثت إليه؟».

ـ لا.

بدا واضحاً أنّ بيفرلي تتحدث عن الحاضر، عن هذه اللحظة بالذات، وليس عن ماضٍ بعيد، حيث تحدّثت إليه فعلاً. تمسّكت بأفكارها، مصممة على طرد هذه الذكريات البعيدة، مهما كانت ملحّة. وأصابتها رعشة امتدت على طول عمودها الفقري، فندمت على اختيارها هذا الثوب المكشوف. ما الذي جعلها تختار هذا الثوب المثير؟ لم تشأ التفكير في الردّ عن هذا السؤال، لأنها لم تشأ مواجهة الجواب.

لكنها تحب هذا الثوب، فالقماش الحريري يتموّج كجلد ثانٍ، وهو مريح للغاية ويبرز اللون الأسمر الذي اكتسبته خلال عطلتها الأخيرة في جزر موريس. وقد اختارته أيضاً لأنها أرادت تذكيره بذاك اليوم، يوم كانا معاً. . . يا إلهي! وأرادت أن تذكّره بما فقده. وتاقت إلى معرفة ما إذا تعذّب هو أيضاً.

لا بدّ أنّ زاكاري ماغواير يراها بوضوح من الخلف، ولعل ذاكرته توخزه قليلاً، لعله تذكّر حين رآها بهذا الثوب. حينذاك، كانت يافعة وساذجة وقد سمحت له بأن يبهرها فارتمت بين ذراعيه وأحبته باندفاع الشباب كله.

التفتت بيفرلي إليها وسألتها: «هل تشعرين بالبرد يا آبي؟».

اهتمام المرأة الواضح أعاد آبي من حلمها المغويّ، فهزّت رأسها بالنفي.

بالرغم من محاولاتها اليائسة، جنحت مخيّلتها وتلذذت بذكريات

www.elromancia.com

يستحيل عليها أن تطمسها أو أن تزيلها من عقلها. فاجأتها رعشة أخرى، إذ عاودتها ذكرى عناقهما تحت أشعة الشمس الغاربة. كانت الذكرى ساحرة بحيث نسيت واقعها واستدارت لتجد نفسها تحدّق بنظرة اتهامية إلى الوجه الذي جاهدت لتتجنّبه، وإلى العينين الداكنتين القادرتين على الإغراء بنظراتهما الدافئة والناعمة نعومة المخمل.

لاحظ زاكاري ماغواير وجودها منذ دخلت من الباب، حتى قبل أن يرفع عينيه إلى المرآة المتقنة الصنع فوق المدفأة. شيء ما شتت انتباهه عن الحديث الدائر الذي تناول الأعمال والذي بدا أنّ الموظفين يعتقدون أنها محط اهتمامه الأوحد في الحياة. لقد شعر برعشة خفيفة، فرفع رأسه غريزياً ليراها في الوقت المناسب. كانت ترتدي ثوباً ناعماً يلتصق بجسمها، وبدت طويلة القامة وأنيقة كما تخيّلها دوماً، لكنه أشاح بنظره بعيداً، محاولاً تجاهل الألم الذي أحسّ به في معدته.

إنها المرأة الوحيدة القادرة على التأثير فيه بهذه الطريقة بالرغم من زواجه من بريدجيت، وبالرغم من أيّ امرأة عرفها منذ ذاك الحين. وشرب جرعة من العصير. إنها هي دائماً وأبداً تتسل إلى حياته وتجبره على إجراء مقارنات، لم ينسها يوماً، وستشكّل الآن تعقيداً لم يتوقعه، إذ أنّ اسمها لم يظهر في أيّ من البيانات التي درسها عند شراء الشركة. واستنتج بشيء من الارتياح أنها تابعت حياتها و. . . كان أحد الأشخاص بقربه ينتظر رداً منه. ابتسم زاك ابتسامة ملتوية وقال: «آسف، كنت بعيداً».

ابتسمت جيسيكا هيرون، رئيسة قسم المحاسبة في شركة «زينيث»، وقالت: «كنت أسأل وحسب إن كنت ستبقى في انكلترا خلال عيد الميلاد أم. . .».

استغل زاك هذا الإلهاء، فابتسم ببطء، ابتسامة أضاءت ملامح

وجهه ثم قال: «أخشى ألاّ أتمكّن من ذلك، فعليّ أن أعود إلى أسرتي في بوسطن».

ـ حسناً.

ـ لدي ابنة في الخامسة من عمرها، وهي فتاة متطلبة وتتوقع عودتي إلى المنزل قريباً.

ـ طبعاً.

لم تتمكّن جيسيكا من إخفاء خيبة أملها، كما لم تتمكّن أيضاً من التحلّي بالشجاعة اللازمة لسؤاله عن زوجته. لم تكن في العادة خرقاء هكذا، لكنها احتاجت إلى ما يلهيها عن أفكارها فسألته: «هل تودّ أن تتعرف إلى بعض العاملين في الشركة؟».

ـ إنها فكرة جيدة.

كانت فكرة جيدة حتى رفع بصره ليقع على آبي مباشرة.

ـ آبي رئيسة قسم الموظفين.

بدا صوت جيسيكا حاداً وهي تعرّفه إليها، فهي لا تحبّذ محاباة الأقرباء، وتعلم جيداً أن تعيين آبي في منصبها لم يأتِ سوى إكراماً للرجل الذي كان مديراً للشركة لسنوات عدة في الماضي. ولم تنجح كفاءة آبي وشعبيتها في جعلها تبدّل رأيها.

ـ آبي، أقدّم لك مدير عام الشركة الجديد.

لم يتفوّه زاك بأيّ كلمة بل اكتفى بإيماء صغيرة من رأسه، وهو لا يزال يرمقها بتلك النظرة النافذة. في الماضي، كانت آبي تعشق نظراته، لعلمها أنها تتحوّل إلى نظرات دافئة تجعل الدم يغني في عروقها بسعادة لا توصف. لكنها في تلك اللحظة، أحسّت بوهن شديد في ركبتيها بحيث خيّل إليها أنها تكاد تفقد وعيها. وقبل أن يحصل ما قد يلحق بها الخزي، تحرك زاك بعد أن رمقها بنظرة أخيرة. لم يتكلم بل اكتفى

www.elromancia.com

بإحناء رأسه بشكل طفيف، وهذه الحركة المزدرية جعلت وجه آبي يشحب، فقد شعرت وكأن أحدهم اعتدى عليها بالضرب.

هذا الازدراء أنعش جيسيكا التي لمعت عيناها وهي تتلفت من زاك إلى آبي، وشعرت بالرضا لعدم مبالاته بها.

أما بقية الأمسية فلم يعلق منها في ذاكرة آبي سوى تفاصيل ضبابية، غير واضحة.

استمعت، وهي فاقدة الحسّ بما حولها، إلى الخطابات وابتسمت لسماع النكات القديمة المكررة. كان خطاب زاك مهذباً ومختصراً، تتخلله لمساته الخاصة التي كانت آبي في السابق تجدها مسليّة جداً. ورأت من الضحكات التي تعالت والتي لم تستطع أن تشارك فيها أنّ الآخرين ما زالوا يجدون كلماته مضحكة. كانت مجروحة، خدرة بسبب تصرّفه، وشعرت بألم شديد جعلها تتمنى لو تنتهي الأمسية بحيث تنسحب وتعود إلى شقتها فتقفل الباب لتضمّد جراحها.

لكن الأمر لم يكن سهلاً حتى حينذاك. فقد استلقت في غرفتها المظلمة تحدّق إلى الفضاء، وهي تتساءل كيف بمكنها أن تواجه أحداث حياتها الحالية. على حدّ علمها، وهي لم تكن واثقة من صحة معلوماتها، لن يهدر رئيس إدارة الشركة زاكاري ماغواير، الكثير من وقته الثمين في المملكة المتحدة. فشركة «زينيث» وإن كانت كبيرة بحسب المعايير الحالية، ليست سوى نقطة في الشبكة العالمية، ويتوقّع منها أن تعمل بشكل مستقل، على المدى القريب على الأقل. في الواقع، لم يكن للشركة أيّ أهمية، لذا خطر لها أنّ زاكاري ماغواير استولى على الشركة ليثأر. وهذه الفكرة أظهرت ضرورة أن تبحث عن عمل جديد على الفور. كان عليها أن تفعل ذلك حين خسر توم الشركة منذ ثلاث سنوات لكنها لم تفعل.

إن نظرة زاكاري ماغواير نظرة رجل يضمر الضغينة. لكن لما يفاجئها هذا؟ فرجال الأعمال من ملوك المال قساة بطبيعتهم، وقد تمكّن هو من توسيع أعمال الأسرة في ما يقارب. . . وادّعت أنها تحاول أن تتذكر. . . حوالى خمس سنوات؟ حسناً، إنه أمر تفضّل ألاّ تفكر فيه.

وعاودتها مجدداً ذكرى النظرة التي رمقها بها في الحفلة، فانتزعت صرخة ضعيفة منها وزادت الألم في صدرها. ليت رد فعلها كان مختلفاً! ليتها لم تكترث لأمره! لقالت عندئذ إنها شُفيت منه تماماً. ليت وزنه زاد، وفقد وسامته، ليته. . . .

لم يكن زاكاري ماغواير الرجل الوحيد الذي تخلّى عنها وخيّب أملها، فتوم هايغ، زوج أمها الذي أحبته منذ كانت في الحادية عشرة من عمرها، برع في ذلك. لقد أصبح من الصعب عليها أن تتذكره كما كان في البداية، بعد الدروس القاسية العديدة التي لقّنها إياها. ادّعى أولاً أنه جاء مباشرة من ملاعب ويمبلدون، لكن هذه لم تكن الحقيقة الكاملة، فقد تبيّن لاحقاً أنه لم يشارك يوماً في مباريات المحترفين وإن لعب في مباريات الناشئين.

إلاّ أنّ الهالة التي أحاطت به فضلاً عن مظهره الوسيم وجسمه الرياضي، جعلت آبي تظن أنه إله من آلهة الإغريق جاء ليعيش معهما. وكان من السهل أن تقع أمها، التي بقيت أرملة لسنوات، في شراك سحره. لكنها لم تعرف أبداً أنّ توم أساء إدارة العمل الذي بنته بشق النفس، كما لم تكتشف يوماً خياناته المتكررة التي بدأت منذ أيام زواجهما الأولى. هذه الوقائع لم تعرفها آبي حتى إلاّ بعد حصول الانهيار الأخير حيث لم يعد بالإمكان إخفاء الحقيقة بعد أن استولت على الشركة شركة أخرى.

www.elromansia.com

يا إلهي! رمت آبي الأغطية جانباً وسارت إلى المطبخ، حيث ملأت كأساً بالماء وشربتها. لمحت نفسها في المرآة الموجودة في البهو، فضغطت بيدها على عينيها الحمراوين، وراحت تحدّث نفسها قائلة: إذا لم تنامي قليلاً، فسيكون حالك مزرياً في الصباح، وستسرّ جيسيكا لمظهرك هذا.

لكن كلماتها هذه جاءت من دون فائدة، فحين عادت إلى السرير لم تجد سبيلاً للحصول على السكينة سوى بالشرود والعودة إلى سنوات الدراسة في الجامعة، حين جاء زاكاري ماغواير، كنسيم عليل، ليعمل مؤقتاً كأستاذ مساعد. أثار هذا المحاضر الأميركي اهتمام الطلاب، وتسببت شخصيته بجيشان عام، لا سيّما بين الشابات اللواتي كبرن بين أساتذة في خريف العمر ومملين للغاية.

إلاّ أنّ زاك كان مختلفاً، فوجدت آبي نفسها، كأيّ فتاة أخرى، وبغض النظر عن الكلية المنتسبة إليها، منجذبة إليه. وكان من المستحيل ألاّ يدرك زاك أنه يثير فوضى عارمة، ولعله وجد الأمر مسلياً، لكنه لم يحاول أن يستغلّه أو أنّ يستغل الفتيات اللواتي أظهرن له إعجابهن بشكل واضح وصريح.

وكان من حظها، من حسن حظها فعلاً، أن التقته صدفة في النورماندي، قرابة آخر ذاك الصيف المشمس. وقد جاءت إلى النورماندي لتعالج مسألة بعض الأملاك الشخصية التي أهملوها أثناء مرض أمها. كان عليها في الواقع أن تعرض المنزل الذي اعتادوا تمضية العطلات فيه للبيع، فتوم مشغول دوماً مع المحاسبين والمصرفيين، لذا وقعت على عاتقها هذه المهمة البائسة.

كان هذا أسبوعها الثاني في النورماندي، وبعد أن وضّبت أغراضها كلها، قررت أن تذهب إلى القرية لشراء بعض الطعام. وفي طريق

عودتها إلى السيارة، محمّلة بأكياس الفواكه والخضار من السوق، اصطدمت بأحدهم عند زاوية الطريق، ما جعل أحد أكياس المشتريات يقع منها لتنتشر الأغراض في كافة الاتجاهات. التفت إليها الشخص الذي كان يعيق طريقها فتذكّرت أصول السلوك الحسن، وهمست فيما هو يلتقط شمامة: «عفواً».

ـ إنها غلطتي.

راح ينظر إليها نظرة شخص يعرفها، لكن لكنته الاميركية هي التي جعلتها ترفع رأسها بسرعة بعد أن تملّكتها رعشة شديدة وابتسمت ابتسامة رائعة تعكس سعادة فائقة، ما جعله عاجزاً عن تحديد هويتها على الفور.

قال لها بإعجاب واضح: «مرحباً».

كان أطول منها بكثير ما أدار رأس آبي. هذا الرجل شغل نصف فتيات الجامعة، وبالرغم من أنها هي أيضاً حلمت به، إلاّ أنه بدا من السهل نسبياً إدعاء عدم المبالاة وهو يقف أمامها الآن...

ـ مرحباً.

عيناه الرماديتان واهتمامه المتزايد جعلت الاحمرار يزحف إلى خدّيها. هل تجرؤ على الاعتقاد بأنّ تعبيره يعكس سروراً؟ قطّب وهو يتأملها من خلال نظاراته الشمسية، ثم رفع يده وكأنه يقاطع حديثها وقال: «لا تقولي لي، أنت... آبي، أليس كذلك؟ وقد التقينا في حفلة، منذ ثلاثة... أو أربعة أسابيع. آبي... هاي!».

قال كلماته الأخيرة بلهجة انتصار لا تقبل النقض أو الإنكار.

ـ تقريباً، هايغ. يفاجئني أنك تتذكر.

ـ أتذكر دوماً اسماء الفتيات الطويلات القامة، لا سيّما الجميلات منهن.

- فعلاً؟ لما لم ألاحظ ذلك في الحفلة؟

يا إلهي! هل تحاول أن تغازله؟

- أحاول أن أفصل حياتي الشخصية عن حياتي الجامعية. لكن الوضع مختلف هنا.

لقد فهمت ما عناه، فثمة أشخاص في الهيئة التعليمية في الجامعة يرفضون كلياً الاختلاط بالطالبات، ويعتبرون هذا جزءاً هاماً من المنهج الدراسي.

- ماذا تفعل هنا يا زاك؟

كانت فضولية بما يكفي لتطرح هذا السؤال.

- يمكنني أن أطرح السؤال نفسه، إلاّ أنّ. . .

- إلاّ أنّ ماذا. . .؟

- ستقولين على الأرجح إنك في موطنك. فلكنتك هي أول ما يلفت فيك، غامضة لكنها بلا ريب. . .

أوشك أن يقول مثيرة، لكنه بدّل رأيه وقال: «جذابة».

فردّت: «هذا ليس موطني تحديداً. فانكلترا هي موطني، لكني أمضيت جزءاً من طفولتي هنا. كان أبي فرنسياً، وقد توفي حين كنت صغيرة في السن. عادت أمي إلى انكلترا حيث تزوّجت مجدداً من رجل انكليزي».

تأمّل زاكاري ماغواير ملامح وجهها، ولوى شفتيه إعجاباً وقد تفاجأ من اهتمامه المتزايد بها. كانت قد لفتت انتباهه تلك الليلة في اوكسفورد بلكنتها الآسرة، فضلاً عن مظهرها الساحر في تلك اللحظة كحاله الآن بالرغم من ملابسها العادية. أم أنها ملفتة لهذا السبب بالذات؟ كانت ساقاها طويلتين، ناعمتين وسمراوين، وبدت جميلة بسروالها القصير الكحلي اللون وقميصها الأبيض، إلاّ أنّ وجهها جمله

يحبس أنفاسه.

كان جمالها كلاسيكياً مع شيء من الفرادة، بعظمتي خدّيها العاليتين وأسنانها الخلاّبة وشعرها الأسود الحريري الكثّ الذي رفعته عن وجهها بحركة أنيقة. نعم، كان ليتكهّن بجذورها الفرنسية حتى من دون تلك اللكنة.

أما عيناها بلونهما الكهرماني المنقّط بالذهب، فيا إلهي! إن النظر إليهما للحظة يفتن المرء وينوّمه مغنطيسياً. وكما لو أنّ هذا لم يكن كافياً، زاد من سحر تينك العينين أهداب طويلة، قاتمة اللون. . .

لاحظ أنها تضحك، ورجّح أن يكون السبب هو تعابير وجهه المستغرقة في التفكير، فكشّر وقد أحسّ بأنه يتصرف بغباء. لاحظ أنها تفتش في جيب سروالها، بحثاً عن مفتاح سيارتها على الأرجح، إذ توقّفا قرب سيارة من نوع سيتروان.

وقالت آبي: «لم تجب بعد عن سؤالي الأول».

- وما هو؟

كان زاك لا يزال مأخوذاً فوجد صعوبة في التركيز على حديثهما، لكنه عاد وتذكّر ما عنته، فقال: «آه. . . لمَ أنا هنا؟».

ابتسم وهو يدرك تأثير ابتسامته، وشعر بالرضا والسرور وحتى بالإثارة حين لاحظ صدرها يرتفع وينخفض بسرعة متزايدة. كانت شفتاها المنفرجتان مثيرتين وعيناها. . . وخُيِّل إليه أنّ ردات فعلها مشابهة لردات فعله الخاصة. سكت للحظة ليستجمع أفكاره ثم قال: «كنت أقضي في المنطقة يوماً أو اثنين، وخرجت لأشتري بعض الطعام والشراب. . . فهلا انضممت إليّ؟».

عندئذ، نزل عليها الإلهام وتدافعت الكلمات لتخرج من فمها قبل أن تتاح لها فرصة التفكير فيها. ولكم ندمت على تسرّعها هذا لاحقاً!

كان ليبقى في ذاكرتها كلغز محيّر، يزيد من غموضه إضاعتها للفرصة التي أتيحت لها . . . كانت لتتخيّله حب حياتها من دون أن يحصل هذا فعلياً.

ـ لديّ فكرة أفضل، لما لا ترافقني إلى المنزل؟ لقد اشتريت بعض الأغراض التي ينبغي أن أضعها في الثلاجة، ويمكنني أن أحضّر طبق سلطة بسرعة.

كانت قد رتّبت الأكياس في السيارة، وأخذت تنظر إليه عبر خصلة شعر رفعتها عن وجهها بحركتها المعذّبة تلك. بدا لزاك أنها تطلب منه أن ينسى أنها كانت حتى مؤخراً تلميذته، فيما أضافت هي: «هيا، وافق! لدينا بركة سباحة إن كنت ترغب في الانتعاش».

كما لو أنه يحتاج لإقناع! وادّعى أنه يفكّر قبل أن يوافق بهزة كتف خفيفة ويصعد إلى السيارة. لكنه ما لبث أن أسرع في النزول منها على الفور، من دون أن يلحظ تعبير الرعب الذي ارتسم على وجهها.

ودعاها لمشاركته في سخريته من نفسه، فيما هو يضع قدمه على الرصيف: «تذكرت للتو أني ركنت سيارتي على بعد خطوات من هنا».

طرب قلبها مجدداً وهزّت رأسها بتوبيخ لطيف، ثم قالت: «الأستاذ الشارد الذهن كلياً. . .».

فكشّر وأجاب: «لا، أنت السبب، فقد أنستني دعوتك أيّ أمر آخر».

وسرّه احمرار وجهها ارتباكاً.

وبعد لحظات، انطلقا كل في سيارته، قاطعين الطرقات الملتوية، تحت شمس بعد الظهر، فيما وعد زاك نفسه بمتابعة طريقه بعد الغداء مباشرة.

إنها فتاة مذهلة لكنها تشبه مئات الفتيات الأخريات، كما أنّ لديه

خططه الخاصة لقضاء العطلة. فهذه عطلته الأخيرة في أوروبا، نظراً لتزايد مسؤولياته، وهو لا ينوي التورّط في أيّ علاقة حالياً. ليس مع آبي الجميلة ولا حتى مع غيرها. لن يتورّط بالتأكيد مع فتاة لم تفرد جناحيها بعد، لتكتشف امكانياتها وامكانيات العالم. كما أنّ إغواء الأطفال ليس من عادته و . . .

واستفاق من تأملاته وأفكاره حين اضطر للانعطاف إلى اليمين، ليسلك ممراً ضيقاً أفضى به إلى مرج جميل مرّصع بالأزهار البرية. عند اقتراب السيارتين، رفعت عنزتان أعينهما عن المرعى لثوانٍ ثم عادتا تصبان اهتمامهما على العشب الأخضر. وظهر أمامه فجأة إحدى أجمل المزارع القديمة في النورماندي.

أوقف محرك السيارة وجلس صامتاً للحظة يتأمل هذا المشهد المذهل لأحجار صفراء التف حولها بحريّة نبات متعرّش ذهبي اللون. وشقت الورود طريقها هنا وهناك لتبرز برأسها بين نبات اللبلاب المتعرّش فيما تناثرت في الأحواض القديمة النباتات المزهرة المختلفة.

ـ يا لهذا المشهد المذهل!

وخرج من سيارته الرياضية ببطء ثم وقف للحظة يتأمل ما حوله بإعجاب.

ـ لا يمكن لأحد أن يتوقّع وجود منزل هنا.

ـ هذه إحدى مزاياه.

ثم أضافت وهي تنقّب في صندوق سيارتها: «عليّ أن أضع هذه الأغراض في الثلاجة».

أخذ الأكياس منها وتبعها عبر الباب الخشبي الثقيل إلى رواق مظلل حيث تصاعدت رائحة الأعشاب والخزامى والصعتر التي كانت تجفف فيه لقرون. بعدئذ، دخلا إلى حجرة وضعت فيها آبي بعض

الأكياس قبل أن تتمطى بارتياح وتقول: «حسناً، لقد انتهينا. ماذا تودّ أن تأكل على الغداء؟».

ـ ما رأيك ببعض العصير والخبز والجبنة، فالطقس حار ولا حاجة للطهو.

قادته عائدة إلى المطبخ، وفتحت باباً ثبتته بمكواة قديمة.

ـ ما رأيك بطبق عجة بالبيض؟

وفيما هي تتكلم، أخذت مقلاة من النحاس معلّقة فوق الفرن ثم انحنت لتجلب قصعة لخفق البيض من على الرف السفلي. رفعت نظرها إليه مستفهمة حين لم تسمع منه جواباً، فشعرت بتيار كهربائي يمرّ بينهما حين لاحظت نظرته التي جعلت قلبها يتوقف عن الخفقان للحظة ليعود فيقرع كالطبل بين ضلوعها.

ـ ممتاز.

إلاّ أنّ عينيه كانتا تلمّحان إلى أمر آخر غير وجبة الطعام.

بذلت جهدها لتتكلم من دون أن تتلعثم، لكنها عجزت عن ذلك فاستدارت نحو المغسلة.

ـ هلاّ غسلت الخس... بعدئذ، يمكنك أن تسكب كأساً من العصير لكل منا.

بدت فكرة جيدة. وشعرت بالاسترخاء كحاله حين اقترحت أن يساعدها، لكنه سرّ أكثر حين اتيحت له فرصة الاتكاء على الباب وفي يده كأس العصير ليتأمل حركاتها الأنيقة والرشيقة وهي تفرم الأعشاب المنكّهة وتحضّر الصلصة للسلطة وتضعها في طبق كبير مع بضع حبات الطماطم وقطع الفليفلة الخضراء. بعدئذ، وضعت الطبق على صينية إلى جانب رغيف من الخبز الطازج وقطعة كبيرة من الزبدة الشهيّة.

كانت تركز كلياً على خفق البيض وعلى بشر القليل من الجبنة

ومسح المقلاة بالقليل من الزبدة، فانتهت في دقائق معدودة من تحضير عجة شهية، ذهبية اللون. والتفتت إليه بابتسامتها التي تفقد المرء صوابه وقالت: «الطعام جاهز. هلاّ جلبت الصينية... يمكننا تناول الطعام في الخارج».

أطاعها ونفذّ ما طلبته منه، ثم تبعها إلى الشرفة حيث وضع الأطباق على الطاولة تحت العريشة.

نفضت شرشف الطاولة الأزرق والأبيض وهي تقول: «حسناً، حان وقت الطعام وأنا جائعة جداً».

فكشّر وقال: «وأنا أيضاً تناولت الفطور باكراً هذا الصباح... و...».

ـ هل كنت مقيماً في مكان قريب؟

ولاحظ مجدداً أنّ كل حركة من حركاتها أنيقة. راقبها وهي تطبخ، وتقطع الخضار وتحضّر العجة، فأذهلته إذ شعر وكأنه يحضر عرضاً لرقص الباليه. وها هي الآن تنظر إليه بتينك العينين المتسائلتين، اللتين تبهران الناظر بجمالهما، وسألته: «أين كنت تقيم؟».

ـ قرب آرومنش.

يحتاج إلى جرعة من الماء البارد ليهدأ أعصابه، وهو الذي ظنّ أنه ترك هذه المشاعر وهذه الانفعالات خلفه حين تجاوز سن المراهقة. لم يكن قد اعتاد فقدان السيطرة على نفسه ما أزعجه... لكنه رحّب بشعور الإثارة الذي تملّكه... شرط ألاّ... وأجبر نفسه على العودة إلى أرض الواقع.

ـ كنت أجوب المنطقة الساحلية، كما زرت أحد قبور العائلة، فقد سقط عمي على أرض المعركة على شاطىء اوماها يوم إنزال القوات الاميركية.

ـ آه!

ما كان عليها أن تتطفل، فلا بد أن الأمر مؤلم. . . وسألته: «هل هذه زيارتك الأولى؟».

ـ لا، فقد جئت مراراً.

تخلّص الآن من تأثيرها عليه، وشعر أنه أهدأ من قبل. وراح يستمتع بطعامها وبرفقتها، فهو يحب النساء ويجد الحوار معهن، ولا سيّما معها، مليئاً بالتحدّي والإثارة.

ـ زرت المنطقة للمرة الأولى حين كنت أدرس في المملكة المتحدة. ومنذ ذاك الحين، عدت مراراً لإلقاء سلسلة من المحاضرات أو للقاء الشركاء في العمل، وقررت أن أستغل زياراتي إلى أقصى حدّ، كما أني اهتم بتاريخ القرن العشرين، وبما أنّ فرنسا كانت في قلب الأحداث. . . وبما أنني أحب المجيء إلى هنا. . .

وهزّ كتفيه بعد أن قرر أن يغيّر الموضوع ثم أشار بشوكته إلى الطعام قائلاً: «هذا لذيذ بكل بساطة».

فردّت آبي: «مع التركيز على البساطة. في طريق العودة، رحت أفكر بأني دعوت أحد الأساتذة لتناول الغداء، فماذا سأقدّم له؟ لا بد أنه لم يعتد تناول الخبز والجبن فقط».

ـ كان لا بأس بذلك، لكن. . . سأصحح لك معلوماتك، فعلى الرغم مما سمعته، أنا لست أستاذاً.

ـ ألست أستاذاً؟

عيناها الواسعتان ونظراتها المضطربة ذكّرته بالانجذاب الذي شعر به نحوها فيما تابعت تقول: «الكل يقول إنك من هارفرد».

ـ درست في هارفرد، لكنني في الواقع رجل أعمال، يُدعى من حين إلى آخر للتحدث إلى الطلاب. لذا، عندما طُلب مني أن أحضر

إلى اوكسفورد، حاولت أن أزامن زيارتي مع مشاريع أخرى و. . . ها أنا ذا.

هذه المعلومة أضفت طابعاً شخصياً عليه: «إذاً، اعتقد أنك ستعود إلى الولايات المتحدة».

كانت قد افترضت في سرّها أنه سيعود إلى انكلترا بعد الاستراحة الطويلة.

ـ نعم، سأعود إلى بوسطن حيث تعمل عائلتي منذ أكثر من مائة عام. فوالدي يرغب في التقاعد وأشك في أن أجد بعد ذلك أيّ فرصة للاسترخاء والاستمتاع بوقتي.

وصمت قليلاً ليبدّل مجرى الحديث: «كفانا حديثاً عني! عندما التقينا طلبت مني أن أرافقك إلى منزلك في حين أنك قلت إن انكلترا هي موطنك».

تلفتت من حولها وكشّرت بكآبة مفاجئة ثم قالت: «ما عنيته هو. . . عندما أكون في فرنسا هذا بيتي. فأبي ولد هنا، لكن الأمور تغيّرت الآن. لطالما اعتبرت أنا وأمي هذا المنزل منزلنا».

وانحنت إلى الأمام لترفع صحنه الذي وضعته فوق صحنها، ثم وقفت قبل أن تضيف: «توفيت والدتي منذ ستة أشهر، والآن سأبيع المنزل».

وابتعدت قبل أن تظهر مرارتها، فهذا المنزل كان ينبغي أن يصبح ملكها وليس ملك توم. . .

تأمّلها زاك وهي تمرّ قربه متوجهة إلى المطبخ، وحين عادت بعد دقائق حاملة صحناً من الدراق، وضعته على الطاولة بينهما.

ـ ستجهز القهوة بعد دقائق. نعم، سنبيع المنزل. فتوم، زوج أمي، لم يعد يحتمل فجأة فكرة المجيء إلى هنا من دونها.

www.elromancia.com

ربما عليها أن تتقبّل حجة توم، وتنسى المشاكل المالية الخطرة في المصنع، ربما إذا لم تفكّر في هذه المشاكل فقد تختفي.

ـ أجّلت الموضوع قدر الإمكان، لكني اضطررت أخيراً للمجيء كي أفرز أغراضها الشخصية، من ملابس ورسائل وكتب. ظننت أنني لن أتمكن من مواجهة الأمر.

وارتعش صوتها فجأة، ورأى أسنانها البيضاء تعضّ على شفتها السفلى.

وأخيراً، تكلّم: «يمكنني أن أفهم شعورك، ففقدان شخص عزيز أمر مؤلم للغاية. لكن... إنه بيت كبير ومعزول. ألا تشعرين بالتوتر لوجودك هنا وحدك؟ هل خطر في بال زوج أمك أنّ في وجودك هنا وحيدة مخاطرة؟».

هزّت رأسها ما جعل شعرها الأسود الحريري يتمايل ليعكس الضوء فحبس زاك أنفاسه. وللحظة، خيّل إليه أنهما انتقلا إلى لوحة للرسام العالمي مونيه. وتعالى طنين نحلة تتنقل بكسل بين الأزهار فوق رأسيهما فيما أجابته: «لا، لمَ عليّ أن أتوتر؟ في الواقع، ثمة مزرعة أخرى على بعد خمسين ياردة عبر المرج، لكنك لا تراها من هنا. وصاحب المزرعة يأتي ليطمئن على ماشيته مرتين في اليوم. وإذا احتجت لأيّ شيء، فيمكنني أن أناديه أو أنادي زوجته على الفور. لكن هذا المكان هو الأكثر أماناً في العالم».

ـ فعلاً، هذا ما يبدو. وكيف حال التوضيب؟

ـ كدت انتهي. في الواقع، الأغراض أقل مما توقّعت. لا بدّ أن أمي حملت معها معظم ملابسها ومجوهراتها. عثرت على بعض القمصان، والكثير من الصور وبعض الرسائل التي وجدت صعوبة في التعامل معها. على أيّ حال...

وبذلت جهداً واضحاً لتبدّل الموضوع، فقالت: «أخبرني، إلى أين كنت متوجهاً؟».

فأجاب بلهجة خفيفة متهكمة: «قبل أن تؤخريني؟ كنت متوجهاً إلى روان، فلديّ بعض الأعمال هناك. لكنك سلبتني من كافة أعمالي وأقنعتني بتناول الطعام معك».

ـ حقاً؟ إذاً، إنها غلطة المرأة التي أغوتك. أين سمعت هذا الكلام من قبل يا ترى؟

لكن فكرة غريبة أخرى تشكّلت في ذهنها، وبالكاد استطاعت أن تصدّق الكلمات التي خرجت من فمها وهي تقدّم له عرضاً آخر بتسرّع، ومن دون أن تتكبّد عناء التفكير فيه وفي عواقبه وتبعاته. في الواقع، أدركت أنّ ما تفعله هو الجنون بعينه فيما هي تتكلّم وتمنّت لو يعتذر عن قبول اقتراحها المتسرّع: «لدينا غرفة فوق الحظيرة، يبيت فيها الأصدقاء عندما يزوروننا، وهي مريحة جداً. فإذا شئت، يمكنك أن تستخدمها لليلة أو اثنتين...».

حدّقت إليه راجية بما أوتيت من قوّة أن يرفض عرضها بتهذيب ويستقل سيارته سريعاً.

والتفت إليها بدوره كما لو أنه يجد صعوبة في تشغيل إرادته وقال: «حسناً، هذا عرض يصعب رفضه».

واكتسحت آبي موجة من السعادة العارمة.

تركته ودخلت إلى البيت لتنجز بعض الأعمال وحاولت أن تبدد شعور الإثارة الذي تملكها بالانشغال ببعض الأمور العملية. حمدت الله لأنهم ما زالوا يحتفظون ببعض البياضات المرتّبة للسرير. حسناً، البيت سيُباع بالطبع، ولم يكن من المنطقي أن يشحنوا الأثاث كله إلى الكلترا، لكن سرّها أن تلمس الأقمشة الناعمة الجميلة التي غسلتها

وكوتها أمها وتركتها في الجارور. . . تنهّدت آبي وهي تملّس الملاءة على الفراش، ثم وضعت الوسادة في كيسها وهي تفكّر كم تبدو جميلة مع غطاء السرير الأزرق الباهت.

بعدئذ، تأكدت من توفّر بطانية رقيقة في الخزانة، ومن وجود صابون ومناشف في الحمام الحديث الملحق بالغرفة. نفضت آبي الغبار عن طاولة الزينة والمرآة ثم وقفت عند النافذة.

كان يجلس حيث تركته، إحدى يديه تعبث بكأس العصير والدليل الذي كان يقرأه حين اصطدما ببعضهما البعض على الطاولة. فيما هو يحدّق إلى الفضاء. الرعشة التي هزّت جسمها كله كانت مخيفة، وتساءلت للمرة الأولى ما إذا كانت تتصرف بحكمة. فما قاله عن عزلة المزرعة صحيح، ولم تعتد هي دعوة من لا تعرفهم سوى معرفة سطحية إلى البيت، لذا، ما الذي دهاها بحق الله؟

ربما عليها أن تتصل بتوم لتعلمه بهوية من سيبيت في المزرعة يوماً أو اثنين. إنما من جهة أخرى. . . تصرفاته المتملّكة أزعجتها مؤخراً، إذ أصبح يمتعض من أيّ شخص قد يؤثر فيها ويقدّم لها النصح. آه. . . كم تغيّرت الحياة منذ وفاة والدتها، وكم أُطلق من وعود في هذا الجو المشحون، وعود عاطفية، غير عقلانية. لكنها لا تستطيع أن تبقى مرتبطة بتوم إلى الأبد، فقد كُتب على حيابهما أنَ تتخذا مجريين مختلفين.

إنها تتصرف بغباء، فهي لم تتخيّل للحظة أنّ زاكاري سيتحرش بها، وعلى أيّ حال. . . فات الأوان. فقد دعته وقَبِلَ هو الدعوة. ستبدو حمقاء إذا ما تراجعت الآن، كما أنها لا ترغب في أن تتراجع. فبعد السنة البائسة التي أمضتها، تستحق بعض المتعة في حياتها. وإذا ما حاول زاكاري ماغواير أن يعانقها، فهي مستعدة نسبياً لاستغلال

الفرصة. نسبياً! عكست المرآة التعبير المشوّش المرتسم على وجهها، فغضّنت أنفها، تسخر من نفسها. من تظن أنها تخدع؟

الآن. . وبعد خمس سنوات، وبعد أن استعادت إحساسها بالواقع، جلست آبي في سريرها في شقتها اللندنية ومدّت يدها إلى المصباح الجانبي. لم تدرك آبي هابغ الشابة، ولشدة سذاجتها حينها، أنّ ألماً شديداً ينتظرها في الجانب الآخر للحظات السعادة تلك.

* * *

www.elromancia.com

٢ ـ مهمة مستحيلة

في اليوم التالي في المكتب، لم تشعر بالارتياح إلاّ بعد الغداء، حين سمعت أحد الزملاء يقول إن زاكاري ماغواير سافر عائداً إلى الولايات المتحدة. خفقات قلبها المتسارعة كلما اقترب أحدهم من مكتبها أو كلما رنّ هاتفها، كلها انفعالات ضاعت سدى.

لكن. . . أشعرت حقاً بالارتياح؟ الارتياح يعني أن تهدأ النفسية والأعصاب، فلما إذاً يتملكها هذا الإحساس بالكآبة والنبذ؟ لم تحتمل فكرة أنها كانت تنتظر في سرّها خطوة منه، خطوة تتخذ منحى شخصياً وأكثر خصوصية من احتفال الليلة الماضية. لا، لم تكن تتوقّع شيئاً، إنما ذوباناً بسيطاً للجليد بينهما، أو عزاءً، أو ربما أن يكون قد نسيها حقاً. وهذه الفكرة الأخيرة جعلتها تتأرجح ما بين الأمل واليأس. ولعل استعادتها لشهرة أبيها، في رد فعل منها على تصرفات توم المثيرة للغضب، لم تنبّه ذاكرته.

إلاّ أنها لم تشأ أن تتقبّل هذه الفكرة الأخيرة. كما لم تستطع أن تتقبّل فكرة أنّ العلاقة التي زلزلت حياتها، لم تكن بالنسبة إليه سوى واحدة من سلسلة من العلاقات.

ووعدت نفسها بألاّ تتقبّل ذلك، حتى وإن نظر في عينيها وأنكر ما حصل بينهما. فما حدث لم يكن عارضاً، بل أمراً لا يمكن مقاومته، قوة يستحيل السيطرة عليها. أو على الأقل، لم تتمكن هي أو هو من

السيطرة عليها.

لكن ثمة أمور أخرى تتطلب الآن اهتمامها. فعليها أولاً أن تراجع كومة الملفات التي تنتظر قراراً منها، وأن تقرر ما ستفعله في عطلة الميلاد؟ فقد دعاها توم وصديقته لقضاء العطلة معهما، لكن بما أنّ أمر هاربيت لا يهمها، وهي في الواقع، ممتعضة منهما بالنيابة عن أمها، لم يكن لديها النيّة في قبول الدعوة. وهي تنوي قريباً قطع هذه العلاقة كلياً والتي كان عليها قطعها من قبل، لكن توم منعها من ذلك، إذ تصرّف بذكاء وراح يذكّرها بالأوقات السعيدة الماضية. وكان صحيحاً ما قاله، فقد أسعد والدتها، إنما بفضل كذبه المتواصل.

في عطلة الفصح، استخدمت عرس كارولين كعذر كي لا تمضي العطلة معه، لكن ما من أعراس في الأفق حالياً. وبالرغم من أنّ كارولين، صديقتها الحميمة، دعتها هي وزوجها دافيد لقضاء عيد الميلاد معهما، إلاّ أنها لا تنوي استغلال لطفها وستدعهما يمضيان العيد معاً من دون أيّ دخيل، لا سيّما وأنهما ينتظران طفلهما الأول قريباً.

تزامنت هذه الأمور وتراكمت لتظهر لها مدى وحدتها، وابتعادها عمّا يبدو طبيعياً لأيّ امرأة في مثل سنها. تنهّدت آبي وهي تفكر كيف أنّ الزواج يمكن أن يغيّر فجأة أكثر العلاقات صلابة. . .

وقعت الصاعقة بعد أسبوع، وبشكل غير متوقّع بحيث أصابتها بدوار أفقدها القدرة على التفكير في ما هي مقدمة عليه. استُدعيت آبي إلى مكتب جيسيكا فتسلّحت بالوثائق اللازمة عن الموظفين الجديدين، علّها تريد أن تسأل عنهما. وكالعادة، جعلتها جيسيكا تنتظر، فهزّت الفتاة الجالسة أمام الكمبيوتر في المكتب الخارجي كتفيها وابتسمت لها متعاطفة. وأخيراً، تعالى صوت الجرس الكهربائي وسُمح لها بالدخول.

www.elromancia.com

- اجلسي يا آبي.

رمقتها جيسيكا من خلف نظاراتها بنظرة أظهرت عدم موافقتها على البذلة التي ترتديها الفتاة الشابة. فقد كانت آبي ترتدي بذلة رمادية مخططة باللون الزهري فوق قميص زهري اللون، وبدت أنيقة كعادتها ما أغاظ جيسيكا.

- شكراً.

فتحت آبي ملفها ثم أردفت: «إذا ما استدعيتني بخصوص جون بارنيت وبرايان توماس، فقد جمعت...»

قاطعتها جيسيكا بنفاد صبر: «لا، لم أستدعك لهذه الغاية ببساطة...».

وترددت للحظة ومن ثم تابعت: «هل لديك جواز سفر صالح؟».

عبست آبي غير قادرة على فهم مغزى السؤال وردّت: «جواز سفر؟ نعم، بالطبع لكن...».

- حسناً، تأكدي من أنه صالح الليلة. ما من داعٍ لحجز مقعد في الطائرة، إذا ما...

- طائرة؟

شعرت آبي وكأنها تلقّت ضربة على معدتها، هي مزيج من الإثارة والفزع، فقالت: «ليتني أملك أدنى فكرة عما يجري يا جيسيكا».

- أنا أيضاً أتمنى لو أعرف ما يجري.

لم تحاول جيسيكا أن تخفي امتعاضها، لكنها لم تشأ أن تعلمها أنها عرضت أن تقوم بهذه المهمة بنفسها فقالت: «ليس من مهامي الاهتمام بتفاصيل سفر الموظفين الصغار».

تقبّلت آبي كلامها من دون أن تطرف لها عين، فهي تعلم أن جيسيكا ممتعضة من علاقاتها في الشركة، لذا قررت أن تتجاهل هذه

التفاهات.

- لكن، بما أن رئيس مجلس الإدارة شخصياً طلب مني...

ووقفت ثم توجهت إلى خزانة الملفات قرب النافذة، فيما سألتها آبي: «رئيس مجلس الادارة؟».

للحظة، عجزت آبي عن تحديد هوية الشخص المعني ثم تابعت تتساءل بصوت ضعيف متردد: «أتعنين...؟».

- نعم، اتصل بي زاك ليلة أمس وطلب مني تسليمه بعض الوثائق يداً بيد في مكتبه في بوسطن وأنا... حسناً، بما أنني غير قادرة على إنجاز هذه المهمة، اقترحت أن تذهبي أنت، فأنت الوحيدة التي يمكن للشركة أن تستغني عنها في الوقت الحالي. أرجو ألاّ يكون لديك أي اعتراض.

- اعتراض؟

أحسّت آبي بدوار، فما سمعته حتى الآن لا يُصدّق! جيسيكا وزاك على وفاق تام، وتربطهما علاقة طيبة. وما يصعب تصديقه أكثر هو أنّ جيسيكا لم تعرض خدماتها بل اقترحت اسم آبي لمهمة تقضي بالذهاب إلى بوسطن حيث المقر العام للشركة الأم، وذاك الرجل.

- أرجو ألاّ يكون لديك مشاريع أخرى. أودّ لو أقوم بهذا العمل بنفسي، فأنا لا أحب الاتكال على الآخرين، لكن لديّ اجتماعات مهمة لا يمكنني الغاؤها. وقد كان زاك متفهماً جداً.

قالت كلماتها الأخيرة على عجل فيما هي تعود إلى كرسيها لتجلس ثم أردفت: «لم تقولي بعد إذا كان لديك أيّ مشكلة».

- لا... لا، لا أظن ذلك.

لو كانت صادقة، لاعترفت بأنّ عقلها توقّف كلياً عن التفكير، ولم تعد قادرة على أن تتذكر أيّ ارتباطات لديها خلال عطلة الميلاد.

- حسناً، هذا جيد فنحن لا نريد أيّ مشاكل طارئة. تذكّري إحضار جواز سفرك معك غداً.

- سأفعل بالتأكيد.

وأحسّت آبي أن جيسيكا تصرفها، فوقفت وهي تقاوم رغبتها في أن تقول لها إنها قادرة تماماً على التحقق من صلاحية جواز سفرها. حملت ملفها وهي تسأل: «و... ألا تريدين الاطلاع على هذه الوثائق؟».

قطبّت جيسيكا وردّت: «لا، لديّ ما يكفي من العمل الآن. سأعلمك بتفاصيل السفر فور اتمامها».

عادت آبي إلى مكتبها، ورأسها يدور فيما ساقاها بالكاد قادرتان على حملها.

وبعد يومين، وجدت نفسها في أحد مقاعد الدرجة الأولى في الطائرة التي ستجتاز الأطلسي، حاملة كأساً من العصير ومتسائلةً عن السبب الذي جعلها توافق على لعب دور ساعي البريد. كان الطرد في حقيبتها غامضاً، وهو عبارة عن مغلف مختوم بتوقيع زاك وينبغي أن يتسلّمه شخصياً.

أما الطرد الثاني، وهو علبة كبيرة لُفّت بورق ملفت للنظر من متجر كبير معروف، فسبّب لها الغمّ. لو علمت بأمره لرفضت حمله بالتأكيد، لكنها وُضعت أمام الأمر الواقع، إذ تسلّمته في اللحظة الأخيرة فيما هي تخفي المغلف الضخم في حقيبتها.

قالت لها جيسيكا بشيء من الاعتداد بالنفس، وهي تراقبها عن كثب: «وهذا غرض طلب مني رئيس مجلس الإدارة شراءه خصيصاً له. قولي له: أرجو أن أكون قد اشتريت ما أراده بالضبط».

أخذت آبي العلبة وهزّتها لا إرادياً، فبدت لها خفيفة. ولم يكن

صوتها ثابتاً حين قالت: «تعلمين ما يُقال عن حمل طرود من دون معرفة محتواها على متن طائرة؟ ألن يطرح موظفو الجمارك أيّ اسئلة؟».

- يمكنهم فتح الطرد إذا ما أرادوا ذلك، وأنت أيضاً إذا شئت... لكن، من المؤسف أن يفسدوا الورق الرائع كما يمكنني أن أعطيك ايصال المتجر. ما من شيء سرّي في الطرد. طلب مني زاك أن أعثر له على دمية مميّزة جداً، من تلك التي تُعرض على التلفزيون. فعندما كان هنا، حاول أن يجد إحداها لكنه لم ينجح. إنها هدية خاصة لابنته.

- ابـ... ابـ... ابنته؟

طرحت آبي هذا السؤال وهي غافلة كلياً عن النظرات التي ترمقها بها جيسيكا، ما جعلها تتساءل لاحقاً عما إذا فضحت ما يعتريها. فجيسيكا معروفة جداً بقوة حدسها، لكن أوان الخوف فات.

وكانت ابتسامة المرأة الأخرى تقول: إذا كان لديك بعض الأمل، فانسي الأمر.

لكنها قالت في الواقع: «إنه رجل مخلص لعائلته، على حدّ علمي».

ما من داعٍ لأن يدمّر خبر كهذا قلب آبي، لقد أدركت منذ زمن طويل أنّ هذا مُمكن، فبعد هذا الفراق الطويل، لا بدّ أنه تزوج ورزق أطفالاً، وأصبح رجلاً مخلصاً لعائلته، كما قالت جيسيكا. لكن ولسبب ما، حافظت في أعماقها على أمل طائش... أملت أن تجمعهما... أن تجمعهما... الأحداث في أحد الأيام... نعم، لقد قضت هذه المعلومة على حلمها الأخير.

- المزيد من العصير يا سيدتي؟

- ماذا؟

وعادت من أحلام اليقظة إلى أرض الواقع، ورفعت رأسها تنظر

إلى مضيفة الطيران مبتسمة ثم قالت: «لا، لا، شكراً. أرغب في فنجان من القهوة. إذا سمحت».

كانت بوسطن باردة جداً بعد طقس لندن الكئيب، ورأت عند زاوية كل شارع شجرة تنوب مكسوّة بالثلج، متلألئة بالأنوار. أما واجهات المتاجر فمليئة ببضائع موسمية، فيما الأرصفة تعجّ بالمتسوّقين السعداء.

جلست يونيتي هيدسون، مساعدة زاك، قرب آبي في السيارة بعد أن استقبلتها في المطار، وأخذت تشير إلى الأبنية المهمة في المدينة. راحت آبي تنظر بسأم عبر نافذة سيارة الليموزين، وهي تحاول أن تتجاوب مع المرأة الأخرى، وتتمنى لو تعلم وجهتها وما ينتظرها.

علمت أنهما متوجهتان إلى مكاتب الشركة حيث ستسلم الطرد لرئيس مجلس الإدارة. وبالرغم من ارتجاف أعصابها، أقنعت نفسها بأن اللقاء لن يفقدها أعصابها. فهي تعبة بعد ساعات السفر الطويلة، وليست في مزاج يسمح لها بتبادل الأحاديث الاجتماعية، حتى البسيطة منها.

ما تتمنّاه حقاً في هذه اللحظة، هو غرفة مريحة في فندق حيث يمكنها أن تخلع ثياب السفر، وتستحم ثم تتناول الطعام قبل أن تخلد إلى النوم. كان عقلها لا يزال ينبض ألماً من صوت محركات الطائرة ووحده النوم يمكن أن. . .

تركت السيارة الطريق السريع وانتقلت إلى عالم مختلف، إلى جنة من السكينة، بعيداً عن صخب مدينة بوسطن. توقّفت سيارة الليموزين أمام أبواب زجاجية عريضة، فتقدّم رجل يرتدي بذلة باللونين البني والذهبي وفتح لهما الباب فيما نزلت المرأتان إلى فناء واسع.

ـ حسناً آنسة جارفيه، لا بدّ أنك ترغبين في أن تستريحي قليلاً قبل

أن تقابلي زاك.

ورافقت يونيتي الزائرة إلى المصاعد مضيفة: «بعد رحلة طويلة كهذه، أنا شخصياً لا أرغب في لقاء أيّ شخص».

ثم ابتسمت للبواب قائلة: «مايسون، هلاّ جلبت الحقائب، من فضلك».

بدت الحياة هنا أنيقة إنما عملية للغاية مع تميّز لا يوفّره سوى الثراء الفاحش. وبقيت آبي وحدها في جناح مخصص للزوار في أعلى المبنى فيما اختفت يونيتي بعد أن وعدتها بالعودة بعد ساعة. وهكذا، اتيحت لها فرصة الاستحمام وتغيير ملابسها.

ودفعتها كبرياؤها إلى بذل جهد عظيم في التأنق. وراحت تقنع نفسها بأنّ كل هذه المشاعر المتأججة في أحشائها ما هي إلاّ نتيجة التعب. كانت واثقة من أمر واحد وهو أنها لن تدع زاك ماغواير يدرك أنها لم تلتقِ شخصاً أثر فيها مثله. . .

وأكدت لصورتها في المرآة فيما كانت تتبرّج بمهارة أنّ هذا هو السبب الذي دفعها إلى تبديل ملابسها. فقد ارتدت فستاناً بسيطاً وأنيقاً من الصوف مع سترة قصيرة تناسبه. أما شعرها فعقصته ورفعته عن وجهها لتبرز القرطين الجميلين المصنوعين من اللؤلؤ.

وقفت تتأمل نفسها في المرآة وشعرت بالرضا لما رأته. فهذه المرأة الطويلة، بوجهها الرفيع وعينيها المظللتين هي فعلاً آبي جارفيه، وهذه الحمرة الخفيفة. . . تناسبها، وقد منحتها بعض الثقة التي تحتاجها بشدة. انتعلت حذاءها المصنوع من جلد التمساح وحملت حقيبتها اللماعة حين دقّت يونيتي الباب.

ـ أرجو أن تكوني مستعدة يا آنسة جارفيه.

ورمقتها بنظرة استحسان قبل أن تضيف: «لقد أنهى زاك عمله لليوم

ويمكنه أن يستقبلك الآن».

ـ حسناً.

وسكتت بعد أن تهدّج صوتها ثم حملت العلبة عن الطاولة وسألت: «هل أستطيع ترك أغراضي هنا؟».

ـ بالطبع.

قطعنا ممرات فخمة وعبرنا فسحة رأت فيها آبي قطع أثاث ملفتة للغاية وقد لفتت إحداها انتباهها.

لمست يونيتي السطح المصقول بعناية وقالت: «أليست رائعة؟ إنها خزانة أميركية، صُنعت هنا في بوسطن في القرن السابع عشر. يمكن لزاك أن يطلعك على تاريخها إذا ما سألته. أما بالنسبة للجناح فيمكنك استخدامه خلال زيارتك إذا ما شئت ذلك».

شيء ما في صوتها أوحى بأن إقامتها ستطول أكثر مما تصوّر، لكن آبي لم تطرح عليها أيّ سؤال أو تعلّق على المسألة. فالقرار يعود لها، وما أن تنهي المهمة الموكلة إليها حتى تفعل ما يحلو لها.

وصلنا إلى باب خشبي ضخم، فضغطت المرأة على سلسلة من الأرقام في علبة قرب إطار الباب الذي انفتح لتدخلا إلى قدس الأقداس! كانت السخرية وسيلة آبي الوحيدة للدفاع عن نفسها ضد هذا القدر من الفخامة وهذا الشعور المفاجىء بالخشية.

ـ لمَ لا تضعين العلبة هنا؟

وعبرت يونيتي باباً داخلياً فيما وضعت آبي الطرد جانباً. وبعد أن ترددت للحظة، رفعت رأسها وعبرت الباب الذي أبقي مفتوحاً من أجلها.

ـ أدخلي آنسة جارفيه، فزاك ينتظرك.

في البدء، ظنت آبي أنّ ثمّة خطأ ما، فشعرت بارتياح عارم. لكن

الكرسي خلف المكتب الضخم دارت، ووجدته أمامها، ينظر إليها مباشرة. كان تعبيره غير مقروء، وما من شيء على وجهه يشير إلى الأيام الخوالي أو إلى أيّ علاقة خاصة. إنه رئيس مجلس الإدارة، وهي... حسناً، لعلها أشدّ الناس غباءً بعد رد الفعل الذي تبيّنته لديه، هل يُعقل أن يعاملها بهذه الطريقة بعد أن قطعت كل هذه المسافة؟... لعلها مجنونة لأنها سمحت لنفسها بأن...

عندئذ، وفيما الغضب والألم يتصاعدان في داخلها، وقف زاك وقطع المسافة الفاصلة بينهما. وفي هذه اللحظة، راحت الأرض تهتز تحت قدميها وراح عقلها يعمل بسرعة فائقة ليسجّل كل تفصيل صغير.

بدا الآن أشبه برجل أعمال أكثر مما كان عليه حين عرفته في دوره كمحاضر. كان يرتدي بذلة عمل داكنة لم تستطع أن تخفي جسده القوي، وهو لا يزال يتحرك كرياضي بتناسق وأناقة. هذه الملاحظة جعلت النيران تشتعل في جسدها. لاحظت لون قميصه الأزرق الداكن وربطة عنقه الرمادية وحذاءه اللماع، كما اشتمت رائحة عطره المميّزة التي زادت حواسها وأعصابها تنبّهاً. وبدا وكأنه استحم لتوه، إذ ما زال شعره يلمع رطباً وشعرت بغصّة مفاجئة حين رأت ما لم تلحظه في انكلترا لشدة تأثرّها، وهو الخيوط الفضية التي ظهرت عند صدغيه.

ـ آبي...

هل تخدع نفسها أم أنها سمعت فعلاً نبرة حنين في هذه الكلمة الوحيدة، أم لعلها تعكس وببساطة ردات فعلها الخاصة؟

ـ أنا...

كادت تقول إنها ظنت أنه نسيّ اسمها لكنها عدلت عن رأيها، فهي لا تنوي لعب دور العاشقة المنبوذة. ابتسمت ابتسامة ضعيفة ثم فتحت حقيبتها وقالت: «طلبت مني جيسيكا أن أسلمك هذا».

www.elromancia.com

وهزّت كتفيها في محاولة منها لإظهار المرح ثم أضافت: «طلبت أن أسلمه لك شخصياً، دون غيرك».

وسحبت المغلف وسلّمته إياه فأخذه ووضعه في جيب سترته الداخلي، ثم قال: «نعم، هذه تعليماتي. شكراً لك».

ومدّ يده مشيراً إلى زاوية في الغرفة، داعياً إياها للجلوس. وانتظر حتى جلست على الأريكة قبل أن يجلس قبالتها.

ـ أنا ممتن لك لأنك تكبّدت عناء المجيء.

والتقت عيناها بعينيه الرماديتين، فأجفلتها فكرة أنّ هذا الرجل قد عانى وتعذّب. لكن لا، لا يمكنها أن تتعاطف معه.

وتساءلت في سرّها إن كان لديها خيار آخر، لكن صوتها كان هادئاً مع شيء من الملل حين تكلّمت: «أعتقد أنّ الأمر كان هاماً، شيء لا بدّ من أن يصلك بسرعة».

ـ نعم.

والتوى فمه بابتسامة تسلية خفيفة حين أردف: «يمكنك أن تقولي... لم أستطع الانتظار».

وصمت للحظة ثم سأل: «هل تودّين شرب شيء ما؟».

بدا سؤاله آلياً، كعرض يقدّمه لأيّ شخص يدخل هذه الغرفة.

فردّت متشنّجة: «لا، شكراً لك».

ـ حسناً.

بدا وكأنه فقد فجأة السيطرة على الأحداث، وهو أمر لا يصدّق بالنسبة لشخص من طينته. لكنه كان لا يزال متأثراً منذ رآها للمرة الأولى، ومشككاً بصحة نظره. إنها هنا، وتجلس في الواقع قبالته. وبالرغم من أنه رآها تصل عبر كاميرات المراقبة، إلاّ أنه لم يكن مستعداً لحقيقة وجودها معه في الغرفة نفسها. يكفي أن يمد يده...

كان من الصعب عليه أن يصف مظهرها. لا بدّ أنّ ثمة نساء أجمل منها، لكن شيئاً ما في هذه المرأة تغلغل فيه منذ البدء... إنما... الآن... بدت مختلفة جداً عن تلك الفتاة التي عرفها وأحبها في تلك الأيام الساحرة في النورماندي. حينذاك، تميّزت بالدفء كالشمس الساطعة، وباللباس البسيط وبتفتّح الشباب...

أما الآن فقد غيّرتها السنوات وحوّلتها إلى شخص مختلف كلياً، متحفّظ ومتأنق ورابط الجأش، إلاّ أنّ هذا الاحمرار الخفيف لا يزال ملفتاً.

وعاد إلى الواقع بشيء من نفاد الصبر. يجب ألاّ يضعف ويحنّ فهذه العواطف ستجعله يحيد عن الهدف الحقيقي من استدعائها إلى هنا. لكن هدف هذه الخطة ليس المعاقبة تحديداً بل لعل الفضول الغاضب هو الوصف الأدق، ولن يجعلها تتعرض للفشل بسبب ضعفه أمام هذه المرأة. وهذا أمر لم يتوقّعه ما أغاظه جداً. عليه أن يذكّر نفسه دوماً بأنها لم تعد ذاك الشخص الصادق الصريح الذي كانته في الماضي.

ما الذي قالته جيسيكا على مضض، حين أطلعها على خطته: «سيكون من الجيد أن تغادر آبي المكتب لبعض الوقت. في الواقع... إنها مقرّبة جداً من أحد مندوبي المبيعات لدينا. ولا أقول إن زواجه على المحك، لكن... لكني أحبه وأحب زوجته، كما... أكره أن أرى آبي ترتكب خطأ ثانياً».

ـ ثانياً؟

ما كان عليه أن يطرح هذا السؤال لكنه انزلق من بين شفتيه، رغماً عنه.

ـ حسناً، لم تكن، لنقل... محظوظة، و... ينبغي ألاّ أضيف

www.elromancia.com

المزيد.

أربكتها حدة نظراته، فانتزعت عينيها عنه، ونظرت من حولها وقد تملكها شعور باليأس حتى تذكّرت العلبة الثانية التي حملتها معها.

ـ آه، لديّ شيء آخر لك، أم عليّ أن أقول لديّ غرض آخر لابنتك.

أضافت جملتها الأخيرة من دون أن تدرك أنّ نبرتها عكست اتهاماً واضحاً.

ـ آه، نعم.

لم يُظهر أيّ إحساس بالذنب حتى وإن شعر به، كما لم يحمرّ بشكل طفيف أو يحاول أن يبعد عينيه عنها بسبب الارتباك.

ـ قالت لي جيسيكا إنها تمكّنت من العثور عليها. إنها لعبة مميّزة وستسر كاتي بها.

ـ كم... كم عمرها؟

ولم تفلح هذه المرة في الابتسام، كما لم تستطع أن ترى سبب طرحها هذا السؤال في حين أنها لا تهتم لأمره أو لأمر عائلته. إلاّ أنها شعرت بقلق شديد وارتجفت في انتظار ردّه.

ـ كاتي... تكاد تبلغ الخامسة من العمر.

ـ الخامسة؟

واتسعت عينا آبي من الصدمة، وأدارت رأسها بحدّة لئلا يتمكّن من قراءة مشاعرها في لمعان عينيها وارتجاف فمها. لكن، كيف أمكنه ذلك؟ كيف أمكنه أن يغادر النورماندي ليتزوّج على الفور؟ واستعادت رباطة جأشها، وسرّها أن تشعر بأنّ منزلته لديها تراجعت أكثر وأكثر، وجاءت ابتسامتها هذه المرة مضللة، ومقنعة، ولم تتوانَ عن النظر إليه مباشرة.

ـ عمر رائع.

ووجدت صعوبة في السيطرة على ارتجاف شفتيها وهي تضيف: «لم يخطر في بالي... خمس سنوات. كم هذا... مدهش! الوقت يمر بسرعة».

ولاحظت أنه زمّ فمه، فشعرت بالنصر لأنها أغضبته. وتابعت كلامها وقد وجدت بلسماً لجراحها الخاصة في الأسئلة التي تطرحها بطريقة لا مبالية ظاهرياً: «لا بدّ أنها متحمسة مع اقتراب عيد الميلاد».

وأخذت نفساً عميقاً لتسيطر على تلعثمها ثم أردفت ببطء: «هل أرسلت لائحة بالهدايا التي تريدها لبابا نويل؟ وهل اللعبة مفاجأة إضافية لصباح العيد؟».

فقاطعها بأدب كما لو أنّ اتهاماتها لا تطعنه كالرماح في صدره: «يمكنك أن تطرحي عليها هذه الأسئلة بنفسك، إذا ما رافقتني لتناول العشاء. أنا واثق من أنها ستسر بإعطائك رأيها في مواضيع مختلفة».

وساد صمت طويل فيما راحا يحدّقان إلى بعضهما البعض. وشعرت آبي بالدماء تتدفق في عروقها، وبالهواء مشحوناً بالكهرباء.

ـ أنا... لا أظن أنها فكرة جيدة، أليس كذلك يا زاك؟

راح صوتها يرتجف بسبب هذه الدعوة غير المتوقّعة. كيف يجرؤ على السخرية منها وإهانتها بهذه الطريقة؟

ـ ليست فكرة جيدة؟ ولمَ يا آبي؟

ماذا عليها أن تقول من دون أن تفضح نفسها؟ الحقيقة، وهي أنها الفتاة الغبية المجنونة التي وقعت في حبه.

هزّت كتفيها قليلاً وحاولت أن تبتسم ثم ردّت: «هل عليّ أن أشرح السبب؟ أعتقد أن الأمر واضح بما يكفي. فزوجتك لن تسرّ باستقبال إحدى...».

وصمتت في محاولة منها للعثور على الكلمة المناسبة لما كانته في

حياته. صديقته؟ حبيبته؟ الجارية التي أحبته بجنون هو الوصف الصحيح والدقيق، لكن كبرياءها منعتها من الكلام. إنما، لمَ عليها أن تسهّل عليه الأمور؟ كما أنّ زوجته ليست هنا لتجرحها بكلامها، فتابعت تقول: «... النساء اللواتي عرفتهن في الماضي، على العشاء».

والتفتت إليه تواجهه وقد علت وجهها ابتسامة بذلت جهداً مضنياً لإظهارها.

امرأة عرفها في الماضي، هذه العبارة التي اختارتها بعد تردد طويل لتصف ما جمعهما يوماً ما، شكّلت عقدة في معدته. في الواقع، لم تكن العبارة هي السبب بل السخرية التي حمّلتها إياها وهي ترميه بها بلهجة متحدّية. أهكذا ترى نفسها؟ كشابة أغواها رجل أكبر منها سناً؟ حسناً، ربما في الأمر بعض الصحة، لكنه أبعد ما يكون عن التجربة التي يتذكّرها. طبعاً، يمكن لذاكرته أن تخدعه وتخونه، لكن اعتراضاتها لا تتناسب مع ما قاله جيسيكا.

هبّ واقفاً واتجه إلى النافذة ليتأمل الأفق البعيد قبل أن يلتفت مجدداً إلى آبي. نظر إليها مباشرة وقال مشدداً على كل كلمة يلفظها: «لن يحصل هذا يا آبي. فيربجيت ماتت منذ سنوات».

أحسّت آبي بغشاوة تغطي عينيها ودماغها وهي تحدّق إلى زاكاري ماغواير. بدا وكأن كل خطة وضعتها، وكل قرار صعب اتخذته على مرّ السنين يتعرّض للهجوم ويهدد بالانهيار.

ـ آبي...

وخانه قلبه حين نظر إلى عينيها اللامعتين، اللتين اقنعتاه بسهولة بأنهما مغرورقتان بالدموع، مجروحتان... لكن عليه ألاّ يسمح للعاطفة بالتغلّب عليه.

وقال بنبرة أكثر إقناعاً: «آبي، تعالي معي إلى البيت وقابلي ابنتي! سأكون ممتناً للغاية».

* * *

www.elromancia.com
روايات

٣ ـ لماذا لم تقل «لا»؟

جلست آبي في زاوية سيارة الليموزين وابتعدت عنه قدر إمكانها، لكنها لم تستطع أن تركّز على شوارع بوسطن.

فالأخبار التي أطلعها عليها لم تفقد بعد تأثيرها على قلبها وعلى عقلها الذي عجز عن التفكير بالتعقيدات التي تحصل في حياتها. شعرت بأنها فقدت السيطرة على مجرى الأمور، واللوم في ذلك يقع عليه، كما هو الحال دوماً.

جلس زاك أيضاً صامتاً، منطوياً على نفسه تقريباً، كما لو أنّ أشباحاً من الماضي تعاوده. وقد سمعته يتنهد مرّة. حسناً، فترة الميلاد تكون عادة مشحونة بالحزن بقدر ما تحمل معها من سعادة. لعله يفكّر في زوجته أو لعله ندم على وجودها هنا، هذا الحضور الذي سيثير الكثير من المشاكل.

وفجأة، خطرت لها فكرة جعلتها تجفل. فبسبب براءتها أو بلاهتها وسذاجتها، افترضت أنّ زاك تزوّج بعد عودته من النورماندي وبعد علاقتهما القصيرة، لكن. . . يبدو لها الآن أنه من الممكن أنّ يكون قد ترك زوجته في الولايات المتحدة، حين سافر إلى النورماندي. هل كانت حاملاً حينها؟ حتى هذا يبدو الآن ممكناً. ودّت أن تطرح عليه هذه الأسئلة كلها، لكنها لم تفعل. إنما، أيّ رجل مهذب ومحترم كان ليخبرها أنه متزوج.

وتعاظم ألمها وإشفاقها على ذاتها وعلى شبابها. ودّت لو تلتفت إليه وتنشب أظافرها في خدّه. وكانت لتطلق العنان لهذه الرغبة الغريزية لو لم تتحوّل السيارة في تلك اللحظة إلى شارع تحيط بجانبيه منازل فخمة مسوّرة. بعدئذ، تجاوزوا بوابة ضخمة ليتوقفوا بعد حين أمام منزل أشبه بالقصر.

وبعد أن سيّطرت على مشاعرها مدّت يدها إلى العلبة الموضوعة على المقعد بينهما، وسمحت لزاك بأن يساعدها على الخروج من السيارة وعلى صعود الدرجات القليلة التي تؤدي إلى الباب الرئيسي. لاحظت آبي أن البهو يفوق مساحة شقتها كلها بمعدل الضعف وتبرز فيه شجرة مزيّنة بالأضواء والدمى، كحال أيّ مكان آخر في المدينة.

كست الأرض الخشبية المصقولة واللماعة سجادة عجمية رائعة بلونيها الأحمر والأزرق. وفجأة تعالت ضجة فوق رأسيهما، ورمت طفلة بنفسها على زاك الذي التقطها ودار بها.

ـ أبي، أبي. . .

ـ كيف حال فتاتي اليوم؟

ـ أبي، كنت أراقبك من النافذة. تقول جورجيا إن الثلج قد يتساقط في عيد الميلاد وستأخذني في جولة في عربة التزلّج.

تخلّص زاك من عناقها وهو يضحك ثم قال: «إذا ما استمريت في هزّي بهذه الطريقة، فلن أتمكّن من أخذك إلى أيّ مكان. لكن، وقبل أن نناقش إمكانية تساقط الثلج، أودّ أن أعرفك بشخص ما. آبي، هذه ابنتي، كايت، كاتي هذه آبي هـ . . .».

وتوقّف عن الكلام في الوقت المناسب ليعود ويقول بنبرة ساخرة: «آبي جارفيه. وقد جاءت من انكلترا وأريدكما أن تصبحا صديقتين».

مدت آبي يدها للطفلة التي تأملتها باهتمام وبشيء من الارتياب

www.elromance.com

المتزايد، ما جعلها تبتسم. كانت هي نفسها أشبه بدمية صغيرة نحيلة، لكنها بدت كشخص راشد ومنطوٍ على نفسه حين وضعت يديها في جيبي سروالها.

لفتتها عينا الطفلة الداكنتان والمعبّرتان وشعرها الكثيف الداكن الذي يبدو وكأنه يرفض الخضوع لأيّ محاولة للسيطرة عليه. هذه هي الطفلة التي كان يمكن أن ترزق بها من زاك، وهذه الفكرة ضربتها كعاصفة هوجاء.

وبعد حين، وجدت صوتها فقالت: «مرحباً كايت، كيف حالك؟»

ـ أنا بخير، شكراً لك.

راحت العينان الداكنتان تتأملان ملابس آبي. وببطء، رفعت يدها الملطخة بالصباغ، لكن انتباهها تحوّل إلى العلبة في يد آبي فسألت: «ماذا تحملين في العلبة؟ هل هي هدية؟».

صوت زاك المتسامح أبطل أيّ تأنيب حمله كلامه: «يا آنسة، يجب ألاّ تطرحي اسئلة مماثلة».

ـ أنا آسفة. . .

أسرعت الطفلة تعتذر لكنه قاطعها قائلاً: «إنه غرض جلبته آبي معها من انكلترا. لكن، بما أنه لا ينبغي أن نسأل عن الهدايا، فعلينا ألاّ نتحدّث في الموضوع».

التفت إليه زوجا عيون في تأنيب ولوم، وإن لسببين مختلفين كلياً، فرفع حاجبيه ببراءة مصطنعة قبل أن يقودهما إلى غرفة، تغطي الكتب جدرانها وتستعر النار في مدفأتها. أرشد آبي إلى مقعد مريح ثم قال: «والآن يا كاتي ماغواير، اذهبي وقولي لجورجيا إنّ بإمكانك أن تسهري أكثر من المعتاد لأنّ لدينا ضيفة. بعدئذ، يمكنك أن تنزلي وسنقرر ما إذا كان بإمكانك الحصول على هديّة آبي».

ابتسمت كاتي ابتسامة عريضة وقد استعادت ثقتها بنفسها، وقالت: «آه، أبي، تعلم ما ستقوله».

وتنهدّت تنهيدة لوم.

ـ لا تكوني واثقة من ذلك. وفيما أنت في الطابق العلوي، من الأفضل أن تغسلي يديك، فأنت تعلمين أنّ كاتيا لا تحب رؤية البقع في كل مكان.

بعدئذ، التفت إلى آبي وتنهّد قائلاً: «الأولاد! ماذا تودّين أن تشربي يا آبي؟».

ساد صمت طويل فيما راح يتأملها وهي تجلس في المقعد وقد أمالت ساقيها جانباً. بدت متعبة فسألها: «أما زلت تحبين عصير الليمون؟».

وتدفّقت الذكريات تعذّبها. أدركت أنه يتلاعب بها، فازدادت عصبيتها وخوفها من تأثيره، ما دفعها إلى رفض عصيرها المفضّل، فقالت: «لا».

ثم ابتسمت ابتسامة قصيرة مصطنعة قبل أن تضيف: «أصبح الليمون يزعجني، ولم أعد أشربه منذ. . . سنوات. هل ليّ بكوب من المياه المعدنية؟».

أخذت منه الكوب بكآبة وراقبته وهو يجلس قبالتها. ليتها لا تشعر بالضعف، ليتها لم تكن تتعذب! كان عليها أن تنضج وتبتعد عن هذا الهوى الأشبه بحب المراهقات. وتعاظم غضبها فجأة، فوضعت الكوب بشيء من العصبية على طاولة قربها وانحنت نحوه فلاحظت أنّ عينيه ضاقتا حين سجلتا تغيّر جلستها.

ـ لمَ أنا هنا يا زاك؟ بالله عليك قل لي!

ساد صمت طويل بينهما، ما أتاح لها فرصة تأمّله قبل أن يجيب:

www.elromancia.com

«ربما. . . ربما عليك أن تطرحي هذا السؤال على نفسك».

تباً لها! راح زاك يتأمل محتوى كأسه بكآبة. عليها ألاّ تسأل مثل هذه الأسئلة، لا سيّما وأنه لا يملك جواباً. الرغبة العمياء، الانجذاب الذي لا يقاوم. . . عبارات لا يرتاح لاستعمالها وإن كانت تصف الوضع بدقة. وهذه الرغبة الشديدة في استعادة الماضي نوعاً ما. . . حسناً، ما هي إلاّ غطاء لتوقه الموجع إليها.

أما آبي التي راقبته عن كثب، فظنت أنها رأت، وللمرة الأولى، صدعاً في تصرفاته اللطيفة ظاهرياً. لاحظت أنّ هذه الواجهة تخفي إحساساً أعمق، شيئاً من الأسى، أو حتى من الشكوى والإحساس بالظلم. هذه الأحاسيس التي لمحتها خلف قناع زاك ماغواير صدمتها، فلم تستوعب كلماته على الفور. وعندما فعلت، اضطرمت نار غضبها مجدداً.

وببطء متعمّد، تراجعت إلى الخلف وحملت كأسها تتأملها بهدوء مصطنع فيما سعت جاهدة لأن ترخي فكّيها. لكنه من جهة أخرى، محقّ. فلمَ جاءت إلى بوسطن؟ إذ لم يجبرها أحد على ذلك. وإذا كانت مصممة على تفاديه، فالحل الأبسط والأمثل كان يقضي برفض المهمة الموكلة إليها أو بإيجاد عذر ما لكي لا تقوم بها.

كان بإمكانها أن تدّعي المرض إذا ما فشلت الحجج الأخرى. لكن الكذب في الأصل لم يكن ضرورياً، فيكفي أن تقول كلمة «لا». لكنها لم تفعل، بل أخذت تعليماتها من جيسيكا، من دون أدنى اعتراض، في محاولة منها لـ . . . لماذا؟ لطرده من عقلها، لتحرير نفسها منه بحيث يمكنها متابعة حياتها؟ أم لإشباع فضولها بكل بساطة؟ لكن. . . وأدركت أنه ينتظر ردها.

فرفعت رأسها بتحدٍ، ونظرت إليه من دون أن تدرك أنّ ألسنة النار

تنعكس في عينيها، ثم قالت: «جئت لأنه طُلب مني تسليمك وثائق هامة جداً، وأوراق خاصة جداً بحيث لا يمكن تسليمها لشخص آخر سواك».

وللمرة الأولى منذ وصلت ظنت أنها رأت ومضة مرح في عينيه، وهو ما وجدته غريباً في تلك اللحظة. بعدئذ، تمطى ومدّ يده إلى داخل سترته ليسحب المغلف الذي تشبثت به طوال الرحلة، خوفاً من أن تفقده، وهي تتوقع أن يسرقه منها أيّ منافس يسعى إلى إفلاس الشركة وتخريبها.

ـ أهذا ما تعنينه؟

وكانت الضحكة لا تزال مخفية وراء مظهره الرصين.

ـ نعم.

أحسّت أنها ليست في موقع قوة، لذا ارتاحت حين فتح الباب فجأة ودخلت كاتي إلى الغرفة.

ـ قالت جورجيا إنّ لا بأس في ذلك.

ورفعت نفسها لتجلس على ركبتيه، فمدّ زاك يد وأحاط خصرها يقرّبها منه أكثر. ولاحظ في الوقت نفسه أنّ اهتمامها كله منصبّ على الضيفة وعلى العلبة قرب مقعدها. كانت آبي تبتسم لكايت كما لو أنهما مشتركتان في مؤامرة، مؤامرة نسائية حنونة تهدف إلى تقويض سيطرة الرجال.

والتوى قلبه على الفور بسبب شعوره بالذنب والندم لخداعه. . . كل هذا لأنه لم يتمكّن من محوها من عقله. فهو يرغب فيها، وتذكر كيف كان الحال حين بادلته في الماضي الشعور. لكن لاستعادة ذاك السحر، لا بدّ من أن يكون الشعور متبادلاً، وإلاّ فلا يستحق الأمر كل هذا العناء.

وأعاد انتباهه إلى الطفلة فقال بنعومة ولطف: «أعتقد أنك إذا طلبت من آبي بأدب، فقد ترى أنّ الوقت مناسب لإعطائك هذه العلبة الرائعة».

نقلت آبي انتباهها إليه للحظة، لتظهر له عدم موافقتها على طريقة تصرفه، لكنها لم ترَ داعياً لتوريط الطفلة في خلافاتهما، فأخذت العلبة وقدّمتها لها قائلة: «تفضّلي يا كاتي، قال لي أحدهم إنك ستسرّين جداً بما في داخل هذه العلبة. أظن أنه سيعجبك».

وعندما فتحت الطفلة العلبة، بدا السرور وعدم التصديق جليين على وجهها. فالعينان الواسعتان أصلاً أصبحتا أكثر اتساعاً لدى رؤيتها الدمية التي رغبت في الحصول عليها. لمستها بنعومة، ومرت بأصابعها على الثوب الفضي المصنوع من النايلون وعلى الجدائل الذهبية التي تحسستها بوقار قبل أن ترفع رأسها لتنظر إلى الشخص الذي حمل لها هذه الهدية المذهلة.

آبي بتجربتها المحدودة مع الأطفال، وجدت الموقف مؤثراً فابتلعت غصّة في حلقها من دون أن تجرؤ على النظر إلى زاك الذي ركّز اهتمامه عليها هي بدلاً من الطفلة.

وتورّد وجه كايت الصغير وهي تقول بصدق: «آه، آبي، شكراً لك. إنها الدمية التي لطالما أردتها».

ثم التفتت إلى أبيها وسألته: «أبي، هل أستطيع أن آخذها إلى الأعلى لأريها لجورجيا؟ فهي لن تصدق عينيها».

ـ هيا اذهبي. بعد ذلك عليك أن تخلدي إلى النوم، فقد تجاوزت الساعة الموعد المعتاد لنومك و . . .

ـ هل ستصعد يا أبي وتقرأ لي قصة قبل النوم؟

ـ ليس الليلة يا عزيزتي، فلدينا ضيفة. وقد حان موعد العشاء لذا

ودّعي آبي.

ـ تصبحين على خير يا آبي.

واقتربت منها لتطبع قبلة خجولة على خدها قبل أن تردف: «وشكراً جزيلاً جزيلاً لك».

ـ لا بأس يا كايت! يسرّني أنها أعجبتك. تصبحين على خير.

شعرت بنوع من الحنان والعاطفة المفرطة حين سمعت زاك يقطع البهو مع ابنته وهما يتهامسان ويضحكان، ثم وقع خطى عائدة نحوها. عضت شفتها السفلى ورفعت رأسها وقد اتخذت قرارها. ستجد عذراً ما وتطلب منه إعادتها إلى الجناح، لكنه وقف أمامها جاهزاً لتقويض مشاريعها وإفشالها، كما لو أنه يقرأ أفكارها.

ـ قيل لي إنّ العشاء جاهز.

تقدّم نحوها وأخذ منها كأسها الفارغة ووضعها على الطاولة. انتظر حتى وقفت وهو يتأملها بطريقة جعلت قلبها يتخبّط بين أضلعها، ونيتها في الرحيل تتبخّر.

بعدئذ، جلسا إلى مائدة مستديرة صغيرة، يأكلان أشهى الأطباق ويتسامران في أحاديث عامة بسبب وجود المرأة الشابة التي تخدمهما. وأخبر زاك آبي أنّ أماً وابنتها، هما ايفا وكاتيا، تهتمان به وبكاتي، فيما جورجيا، وهي صديقة زوجته الراحلة، تلعب دور الممرضة والحاضنة في آنٍ معاً.

كان الطعام مغرياً، وشعرت مع مرور الوقت أنّ استياءها يتضاءل. أما هو فأراح مرفقيه على الطاولة، بعد أن صرف الخادمة، ما أثار غصة خشية وترقّب في حلق آبي.

ـ هلاّ تركت القهوة في المكتبة يا كاتيا.

أغلقت كاتيا الباب خلفها وتركتهما وحيدين، فيما عمّ صمت

مطبق في المنزل لا يعكّره سوى صوت نبضات قلبها المتسارعة. ظنّت أنها رأت شفتيه تتحركان، لكنها غفلت عن أيّ شيء حولها سوى لذة وجودها معه، تجلس قبالته وتنظر إليه. يجب أن تتماسك، فمن الجنون أن تنسى ما حصل لها في الماضي. وتدافعت الذكريات لتوقظ أحاسيسها، وتراقصت صور الماضي أمام عينيها، صور لم تنساها ولن تنساها.

تلك الليلة، جافاها النوم فجلست إلى نافذة غرفتها واعترفت لنفسها بأنها وقعت في الغرام للمرة الأولى في حياتها. لطالما تساءلت متى سيحصل لها هذا، ثم وعلى حين غرة...

لفت انتباهها حركة خفيفة في الفناء، فحبست أنفاسها وهي تراقب الظل الذي يتحرك بصمت نحو الحديقة المسوّرة. وسمعت صوت المياه بعد أن غطس زاك في بركة السباحة.

لم تتوقف لتفكّر بل رفعت شعرها ونزعت ثياب النوم لتستبدلها بثوب السباحة ونزلت السلالم ركضاً. خرجت من باب المطبخ وهي تبتسم لنفسها ثم وصلت إلى البركة وانسلت في المياه من دون أن تلفت انتباهه. حين وصلت إليه، لمسته برقة.

ـ آبي! يا إلهي!

وأبعد الشعر عن عينيه ثم تنهّد وأضاف: «لقد أخفتني! ظننتك أحد مخلوقات الليل».

فسألته بلهجة مثيرة: «وبدلاً من ذلك؟».

ـ بدلاً من ذلك وجدت نفسي أمام حورية.

ـ ما... ماذا؟

ارتعش جسدها، وانبأها بريق عينيه في ضوء القمر أنها تغرق. شعرت بحاجة إلى لمسه، إلى الاقتراب منه، لكنه شعور قاومته حتى

الساعة والاستسلام الآن سيكون...

عضت شفتها السفلى وسألته: «لمَ لم تقل لي إنك ستسبح؟».

ـ لم... لم أكن أنوي ذلك حين افترقنا.

لاحظت آبي تغيّراً في صوته، رعشة خفيفة ظهرت حين أضاف: «لم أستطع أن أنام».

بسببك، لأنك يا آبي هايغ سلبت النوم من عينيّ.

لكنه أضاف محاولاً إبعاد فكره عن الإغراء: «في الواقع، أنا لا أحتاج إلى الكثير من النوم».

ـ على عكسي أنا، فأنا أحتاج لكل ساعات النوم التي يمكنني الحصول عليها.

ـ إذاً، ما خطبك الليلة؟

ورفع يده ليزيح خصلة شعر عن وجهها، قبل أن يضيف: «سيبتلّ شعرك كله إذا لم تحترسي».

ـ نعم، سأخرج من الماء الآن.

سبحت حتى الحافة وخرجت من البركة، حيث التفّت بمنشفة وتركت شعرها ينسدل على كتفيها. جلست على الكرسي وهي تدرك أنها تبدو مثيرة للغاية.

راح زاك يتأملها وهو يبتسم وقد أدرك ما يدور في خلدها، لأنه يشبه ما يعتريه منذ رآها للمرة الأولى. علم ما ستفضي إليه هذه اللعبة إذا ما استسلم لرغبته. واعترف بأنه لا ينوي كبح نفسه، فهذه المرأة شكّلت هاجساً تملّكه بطريقة صدمته وأثارت استغرابه. لم يحتج لاستخدام سلم البركة. فدفعة واحدة من كتفيه العريضتين القويتين مكّنته من الخروج من الماء.

ـ آبي... أيتها الحورية.

لاحظ ارتعاشها ما فضح مشاعرها وعكس مشاعره وجاء صوته خافتاً، كسولاً وحنوناً للغاية حين قال: «لقد سحرتني، أتعلمين هذا؟».

وأخذها بين ذراعيه، يعانقها بنعومة وإثارة كالليل نفسه.

وبعدئذ، عاشا أياماً وليالٍ عديدة ساحرة ورومنسية، حتى حلّ اليوم الأخير حيث أدرك زاك أنّ عليه السفر إلى ايطاليا لينجز بعض الأعمال. كانت آبي تفكّر في رحيله عندما عادا إلى البيت في وقت متأخر من بعد الظهر. دخلا إلى الفناء وهما يضحكان، غافلين عما حولهما، ووقفا في ظل العريشة يتعانقان.

لم تستطع لاحقاً أن تتذكر ما الذي أثار انتباهها، وجعلها تدرك أنهما مراقبان. لعله انعكاس الزجاج أو الحركة الخفيفة التي لفتت نظرها إلى الوجه الجالس إلى الطاولة قرب النافذة. وبعد لحظات، وقف توم وقد أدرك أنها رأته، ثم تقدّم نحوهما.

وهكذا، انتهت قصة حبهما.

* * *

٤ ـ قيد من حرير

ـ آبي.

أعادها صوته إلى أرض الواقع، وأحسّت بنبرة قلق فيه، كما أحسّت بقدرته على إثارة مشاعرها وارسال قشعريرة في بدنها كله. لقد جرّها هذا الصوت الأميركي العميق من حلمها المفضّل. وآلياً، مدت يدها لتأخذ الطبق المقدّم إليها. قالت ووجهها قد احمّر من الذكريات التي لعب فيها دوراً رئيساً وبسحر لا يقاوم: «أذكر أني قلت إني لا أريد أي شيء آخر».

وإذا ما لاحظ النبرة اللاذعة في كلامها، فإنه لم يظهر ذلك. كان قد رفع ملعقته وراح يتأملها بتعبير غريب حين قال: «تساءلت للحظة أين شردت... بعدئذ، سمحت لي بإقناعك بتناول المزيد. لكن هذا لن يضرّ برشاقتك فهو خفيف جداً».

ولذيذ كما تبيّن لها حين تناولت ملعقة من حلوى الشوكولا.

في المكتبة، جلس قبالتها وراح يصبّ القهوة.

كان من السهل جداً أن تستريح وتسترخي وتسمح لجو الثراء والأناقة بأن يخدّرها إلاّ أنها أدركت أنّ عليها أن تقاوم. لذا، عندما قدّم لها القهوة، جلست مستوية في مقعدها، تقاوم رغبتها في إغماض عينيها لحظة، وحاولت أن تحدّق إليه. ولم يكن الأمر سهلاً إذ بدا أنه يفهم مخططاتها كلها، ويتسلّى بها ويظهر تسامحاً حيال نزواتها.

www.dreamromancia.com

ـ زاك، ما زلت أريد أن أعرف ما الذي أفعله هنا.

أزعجتها نظراته المتأملة، فأشاحت بنظرها عنه والتفتت إلى النار المضطرمة في المدفأة للحظة قبل أن تستجمع شجاعتها وتواجهه مجدداً. قالت بنبرة لا تخلو من المرارة: «كما قلت، لم أرفض إيصال الطرد، ولا تسألني عن السبب. لكني أريد الآن أن أعود إلى بلادي، فالميلاد أوشك أن يحلّ ولا أرى سبباً لبقائي في بوسطن».

ـ يمكنني أن أذكر سبباً واحداً على الأقل.

للحظة لم تفهم ما عناه، ثم... عاودها ذاك الشعور المحرق الذي لا علاقة له بالنار. فقالت: «كان هناك سبب، لا بل اثنان إذا ما احتسبت الدمية. وبالمناسبة، لم أجد من المناسب أن تدع كاتي تظن أنّ الهدية هديتي».

ـ ولمَ لا؟ وجدتها طريقة جيدة لتمتين العلاقة بينكما.

اختياره للكلمات سبب لها غصة في صدرها. وتابع يقول بطريقة جافة: «إنها ترغب في الحصول على هذه الدمية منذ أشهر ولا أظن أنّ ثمة شيء في العالم أهم من هذه الدمية حالياً، وقد اكتسبت على الأرجح صديقة مدى الحياة».

التمعت عيناها غضباً وهي تردّ: «أشكّ في ذلك، فالصداقة لا تكتسب بهذه السهولة».

ـ إننا نتحدّث عن طفلة يا آبي. ويمكن حتى للأطفال في سن الخامسة أن يكونوا مولعين بالاكتساب. ستكتشفين ذلك حين ترزقين بأطفال. أم لعلك... لعلي أخطأت في افتراضاتي، وقد رزقت...

ـ لا.

قاطعته باختصار قبل أن يتمكن من إكمال جملته. جرحها هذا السؤال بشكل لا يطاق، خاصة وأنه هو من طرحه، لكنها عادت

وتمالكت نفسها، وردت بصوت هادىء: «لا، ليس لديّ أولاد».

فقال بلهجة ذات مغزى: «يا للأسف!».

ثم أردف قبل أن تتمكّن من الكلام: «و... ألم تتزوجي؟».

وبعد مرور لحظة صمت مثقلة، تابع وهو يتأملها: «بدا الزواج التفسير المنطقي لتغيير شهرتك».

وصمت مجدداً، ثم قال بنعومة فيما تابعت هي التحديق إليه بغضب عارم: «لكني اكتشفت لاحقاً أنك استعدت شهرتك عند الولادة».

استحال عليها إخفاء مشاعرها حتى وإن حاولت ذلك جاهدة، فقالت: «أفترض... أعتقد أنّ جيسيكا هي مصدر معلوماتك... إنها...».

لكنها عادت وأطبقت فمها رافضة النزول إلى مستوى التهجّم الشخصي على تلك المرأة.

ـ لا أزال أتساءل عن السبب، فقد كنتما مقرّبين... للغاية من بعضكما في الماضي.

بدا صوته مثقلاً بالمرارة وهو يتذكّر دفاعها المستميت عن الرجل الذي ارتاب فيه غريزياً.

رفعت آبي ذقنها غير مستعدة للرد على سؤاله، لكنها قالت بعد حين: «لا أودّ مناقشة هذه المسألة، فهي تخصّني ولا تخصّ سواي».

كانت القهوة قد بردت، فأزاحت فنجانها جانباً وهبّت واقفة قبل أن تقول: «كان يومي طويلاً وأنا مرهقة. أرغب فعلاً في النوم، إلاّ إذا ما زال لديك اختبارات أخرى عليّ الخضوع لها. لو علمت أنّ وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية ستحقق معي، لتحضّرت جيداً. كما أودّ العودة إلى بلادي غداً، إذا ما أمكن ترتيب ذلك، فلديّ مشاريعي

و . . . ».

ـ اجلسي يا آبي. فما زال لدينا مواضيع نناقشها.

ـ لا.

ورفعت يدها إلى رأسها وترنّحت قليلاً، قبل أن تضيف: «لا أريد المزيد يا زاك، لقد أتممت المهمة المطلوبة مني. أحضرت الدمية والرسالة السرّية، مهما كانت. . . ».

وانكسر صوتها بعد أن فقدت قدرتها على الاحتمال، وردّت رأسها إلى الخلف غاضبة، والشرر يتطاير من عينيها.

ـ اجلسي يا آبي.

بدا صوته مهدّئاً، كما لو أنه يتعامل مع طفل مشاكس. كان قد وقف بدوره فسيطر عليها بقامته المديدة، وإذ أحسّت أنّ ساقيها عاجزتان عن حملها، ارتمت مجدداً في مقعدها.

ـ ربما حان الوقت لتلقي نظرة على هذا.

وأخذ عن الطاولة الطرد الذي قطعت الأطلسي لتسلّمه لرئيس مجلس الإدارة شخصياً، يداً بيد.

ـ ماذا؟

قلّبته بين يديها، وقد عرفته بشكل مشوّش ومن دون اهتمام حقيقي.

كان متجهّماً وشفتاه مزمومتين وهو ينظر إليها.

ـ هيا، افتحيه يا آبي. افتحيه فقد تفهمين لما كان من الضروري أن تحمليه أنت إليّ، لمَا كان من الضروري أن تسلّميه لي وليس لشخص آخر.

وكأنما للتأكيد على كلامه، بحث خلفه عن سكين لفتح المغلفات وناولها إياه بانحناءة ساخرة، وقال: «افتحيه يا آبي».

فتحت آبي المغلف وهي بالكاد تدرك ما تفعله. بعدئذ، أخرجت منه أوراقاً عدة تحمل شعار الشركة. وللحظة، تعطّل دماغها عن العمل لعدم قدرته على تصديق ما رأته، فقد كانت الأوراق بيضاء، لا تحمل أيّ كلمة أو حرف. قلّبت الأوراق مراراً وتكراراً قبل أن تتركها تسقط على الأرض. ثمة أمر فاتها وهي لا تريد أيّ تفسير له، مهما كان.

هزّت رأسها في حركة رفض، فيما امتدت يدها لتضغط على جفنيها المطبقين قبل أن تقف على قدميها.

ـ حسناً، إنها لعبة شريرة تلعبها. وربما يسرّك أن تجعل شخصاً ما يقطع آلاف الأميال لتشعر بعظمتك وقوتك. لكنها تبدو لي طريقة غريبة في إظهار جبروتك.

انتابها شعور غريب في معدتها، شعور ستحاول اكتشاف ماهيته لاحقاً، إذ لا يمكن وصفه بالغضب، علماً أنه يمكن الخلط بين الحنق والإثارة أحياناً. لا، طبعاً لا!

ضحك زاك ضحكة صغيرة أشبه برعشة خفيفة منها بضحكة مرح، وقال: «إنها الطريقة الوحيدة التي وجدتها لكي تحضري إلى هنا».

ـ لكن لماذا؟ لمَ تريد إحضاري إلى هنا؟

وارتفع صوتها غضباً واستياءً، ما جعل لكنتها الخفيفة تبرز، وأضافت: «عندما التقينا في الحفل، تصرّفت كما لو أنك لم ترني من قبل».

وكبحت رغبتها الشديدة في رفع قبضتيها وإمطار صدره بالضربات، وبدلاً من ذلك وجّهت انفعالاتها المتزايدة لتنعكس نفوراً بارداً ظهر في صوتها وفي طريقة تصرفها وتابعت تقول: «ما من ترابط في تصرفاتك. إذا أردت أن تلعب لعبة سخيفة فلما لم تختار جيسيكا هيرون؟».

وعندما تلعثمت وارتجف صوتها، أدركت أنها تكاد تفقد السيطرة على أعصابها، فأردفت بسرعة: «سيسرها جداً أن تشاركك في ما تفكر فيه».

ـ نعم، علينا أن نتكلم لاحقاً عن صديقتك جيسيكا.

ـ زميلتي في العمل. لن تدّعي أيّ منا أننا صديقتان.

راح يتأمّل ملامحها الغاضبة ببطء، مستمتعاً بهذه الناحية في طباعها، التي لم يرها في الماضي. فالحياة لم تكن يوماً متعة ورخاءً، وإظهارها هذه الاستقلالية أمر ممتع، أضاف بعض النكهة إلى التجاذب ما بينهما.

ـ لكن من قال إني أردت أن أوكل هذه المهمة لجيسيكا، في حين أنه بمكنتي الحصول عليك يا آبي؟ ولنعد إلى ما اتهمتني به أولاً، ففي حفل الاستقبال، كنت وبكل بساطة، آخر شخص في العالم توقّعت أن أراه.

ـ حقاً؟

كانت كلماته أشبه بعاصفة هبّت عليها، ففي أعماقها، عاد الأمل إلى الحياة ونما حين استولى على الشركة.

ـ حقاً! عندما علمت أننا سنستولي على زينيث، قمت بعمل غير معتاد، إذ طلبت قائمة بأسماء الموظفين، للتحقق من أن. . . من أنّ زوج أمك العزيز لم يعد مسيطراً على الشركة، ولأرى ما إذا كنت تعملين في الشركة. لكن الرد جاء سلباً على المسألتين.

عضت على شفتها السفلى لتمنع صرخة الألم التي كادت تفلت منها. ووجدت نفسها عاجزة عن الكلام إذ لم تجد رداً مناسباً على ما قاله. وبعد صمت دام للحظات، تابع: «هذا يفسّر رد فعلي يا آبي».

لم تكن مستعدة لتقبّل هذا العذر الواهي الآن، بعد أن استعادت

السيطرة على أعصابها ومشاعرها. فقالت: «إذاً عندما تصادف، وبشكل غير متوقّع. . . شخصاً من ماضيك، تتجاهله، يا لرد الفعل الفريد من نوعه!».

ـ أنا لا أتحدّث عن فلان أو فلان. لكن عندما التقيتك يا آبي، فقط عندما صادفتك أنتِ.

أدركت من صوته أنها جرحته في الصميم، فردت: «طبعاً. . . أشعر بالإطراء».

كان من الأفضل أن تلتزم الصمت بدلاً من أن تفضح جراحها بتهكّمها اللاذع. وتملّكها الارتياح عندما تجاهل كلماتها، لكن هذا لا يعني أنها سرّت لذكر زوج أمها.

ـ وماذا عن الرجل العظيم نفسه؟ توم هايغ؟ هل ما زلتما معاً؟ لا تفترقان؟

جاء اتهامه قاسياً ما جعل وجهها يشحب. فهي لا تريد أن تتذكر الأيام التي أحبت فيها توم حباً جماً، والتي دافعت فيها عنه دفاعاً مستميتاً. لم تشأ أن تتذكر الآن خاصة، بعد أن اكتشفت كم كان زوج أمها مخادعاً وفاسداً وبعد أن اكتشفت كيف سرقها و. . .

وسيطرت على صوتها لتجيبه: «معاً؟ ليس بالضبط. لكني أرجو أن أنضم إليه في عطلة الميلاد».

وبالرغم من أنها لم تكن تنوي قبول دعوته، إلاّ أنها استغلت الأمر كعذر، فأضافت: «لهذا السبب يجب أن أعود، فعليّ أن أحجز على متن الرحلة المتوجهة إلى تينيريف».

قاطعها ليسأل: «تينيريف؟ وهل يعيش في تينيريف؟».

ـ نعم. انتقل إلى هناك منذ فترة، بعد أن بيع المنزل في سوراي.

لم تشأ أن تتحدث عن المنزل في النورماندي، فسكتت لحظة ثم

أردفت: «وقد تم استثمار المال في ملكية في جزر الكناري».

ـ وتركك وحيدة؟

ـ تركني وحيدة؟ لا يمكنك أن تعبّر عن الوضع بهذه الطريقة. أفترض أني لو أردت مرافقته لفعلت، لكن عندما تم بيع الشركة، حصلت على صفقة جيدة وقررت البقاء.

ـ الأمر كله خسارة كبيرة يا آبي، أليس كذلك؟ كنت تتوقعين السيطرة على قسم من الشركة على الأقل.

شيء ما في تعابير وجهه أربكها، فهي لا تحتمل الشفقة ولا ترضى بها، من أيّ شخص وتحديداً من...

كانت تعبة من هذا الحديث كله، ولم تشأ الخوض في افتراضات وشروحات لا تنتهي، فقالت: «لم يكن ذلك مطروحاً. فقد تركت أمي ما تملكه لزوجها وهذا أمر طبيعي. والآن، أرجو منك أن تطلب لي سيارة أجرة، فأنا مرهقة. كان يومي طويلاً طويلاً».

ـ أفضّل أن تبقي هنا يا آبي.

هذه الكلمات الهادئة وغير المتوقعة أبداً جعلت عينيها تطرفان. حاولت أن تسيطر على العقدة التي تشكّلت في معدتها، ولكن... أليس هذا ما فكرت فيه، وخشيته و... لا، لم تأمله تحديداً... منذ عرفت أنه وحيد، أرمل؟ وقررت أن تتخلّى عن أيّ أفكار حمقاء تتشكّل في دماغها. فقد عاشا تجربة الحب من قبل وانتهت بكارثة.

لذا، وبما أنه من الجنون أن تخاطر مجدداً، هزّت رأسها بعزم وحملت حقيبة يدها قائلة: «لا، شكراً لك يا زاك. أفضّل أن أعود إلى الجناح إن كنت لا تمانع. فعليّ أن أحجز لرحلتي، كما أنّ أغراضي هناك، ولا يمكنني تدبّر أموري من دونها».

ـ حقائبك هنا يا آبي، فقد وضعتها في السيارة. وهي في الأعلى

الآن، في إحدى غرف النوم.

بذلت جهداً لتكبح دفق الكلمات التي أوشكت أن تتلفّظ بها، وكافحت لتستعيد هدوءها، لكنها عجزت عن كبت غضبها كلياً. هزّت رأسها غير مصدّقة وقالت: «إنك... أنت متغطرس لعين. فأنت من يقرر دوماً، من دون أن تستشير غيرك، أفترض أنه مع هذا...».

وصمتت في محاولة منها للسيطرة على أعصابها، ثم أشارت بيدها إلى الثراء الجلي الذي يحيط بهما وتابعت: «مع هذا الثراء الموروث، وعشرات الموظفين الخانعين المستعدين للتذلل لك، من الصعب عليك أن تساوي نفسك بالمخلوقات العادية. لكني لن أسمح لك بتسييري بحسب إرادتك يا زاك. وحتى لو كنت موظفة لديك، فلن أتذلل لك أو لأيّ شخص آخر. أشعر بأني كنت متعاونة للغاية حتى الساعة، ولكن...».

وألقت نظرة على الملامح السمراء فخيّل إليها أنها رأت لمحة غضب مكبوت، لكنها اختفت قبل أن تتأكد مما رأته.

ـ لذا أرجو أن تجلب لي حقيبتي من الأعلى وتطلب سيارة أجرة...

ـ ألقي نظرة من النافذة يا آبي.

وقطع الغرفة بسرعة، وأزاح الستارة الثقيلة جانباً، ثم أردف: «لا أظن أننا سنتمكّن من العودة إلى المدينة حتى لو حاولنا ذلك. فقد يستغرق الأمر ساعات، لذا...».

وأصبح صوته فجأة رقيقاً ومقنعاً، غير متأثر ظاهرياً بالاتهامات التي وجّهتها إليه: «لمَ لا تسترخين؟ اجلسي. سأعدّ لك شراباً ساخناً لتنسي فكرة الذهاب إلى أيّ مكان، باستثناء الذهاب إلى الفراش والخلود إلى النوم بقدر ما تشائين».

تحرّكت آبي المدهوشة ببطء نحو النافذة الواسعة وراحت تنظر إلى الرقع البيضاء التي تتساقط بسرعة ومن دون هوادة. كان الثلج قد تكدّس على جانبي النافذة وكسا الأشجار وتكوّم عند زاوية الحائط الظاهر قبالتها.

خطر لها للحظة أنه مخطط جهنمي وضعه زاك ماغواير لابقائها في بوسطن لأسباب غريبة لكنها عادت على الفور إلى رشدها، وأدركت مدى سخافة هذه الفكرة التي راودتها، فلا علاقة له بقوى الطبيعة ولا سلطة له عليها. إنه رجل نافذ وقوي بالطبع، لكن... مؤشرات عدة دلّت إلى امكانية تساقط الثلوج، وأحدهم تكلّم عن نزهة في مركبة التزلّج. على أيّ حال، بدا من الجنون أن تفكّر في القيادة في ليلة كهذه. التفتت بحدّة بعيداً عن المشهد الرائع ونظرت ببرودة إلى تعبيره المتفحص وقالت: «حسناً، يبدو وكأنك نلت مبتغاك يا زاك ماغواير، لكن لا بدّ أنك معتاد على ذلك. أودّ أن أخلد إلى النوم الآن، إذا لم يكن لديك مانع؟».

ـ كما تشائين يا آبي.

التبدّل الطفيف في مزاجه ترك أثراً كبيراً عليها. واغرورقت عيناها بالدموع لسماع اسمها يلفظ بتلك اللكنة التي لا تنسى والتي لا يمكن لأحد أن يقلّدها. لكن لا بدّ أن التعب والتوتر هما السبب، ولن تسمح لنفسها بأن تفكر، لو أنه... وعبّرت بغضب عن الأفكار التي راودتها قبل قليل: «بالكاد أعفيك من مسؤولية احتجازي هنا».

بدا جلياً أن اتهامها أضحكه، ورفض أخذ اعتراضها على محمل الجدّ، فقال: «فعلاً، لمَ لم أفكّر في ذلك؟ لكن تساقط الثلج لم يكن مفاجأة، فالأرصاد الجوية أنبأت بوصوله منذ يومين. وقد خشيت أن يتساقط قبل أن تصلي إلى بوسطن، ما يفشل خططي كلها. وأظن أنّ

المطار مغلق، لذا...».

وسكت لحظة ثم هزّ كتفيه بشكل طفيف ومن دون اهتمام، قبل أن يضيف: «... قد تبقين هنا لأيام».

ـ مستحيل، قلت لك يا زاك إنّ عليّ أن أعود إلى بلادي. لا يمكنني البقاء هنا.

واعترفت في سرّها أنها لن تجرؤ على ذلك أيضاً.

ـ إذن، علينا أن ننتظر لنرى ما سيحصل. أما الآن، فأنت تريدين الخلود إلى النوم، وسأطلب من كاتيا أن ترافقك، و... أتمنى لك نوماً هنيئاً.

أحسّت بأنامله تداعب خدها فاقشعر جسمها، لكنها رفضت أن تظهر تأثّرها. وتناهى إلى مسمعيهما وقع خطى في البهو، فالتفت. لكنها قالت بصوت مرتجف: «لكن، ما زلت أريد أن أعرف... أودّ لو تقول لي ما الهدف من ملء مغلف بالأوراق البيضاء واجتياز الأطلسي بالطائرة في الدرجة الأولى؟».

ـ ظننت أنك ستكتشفين السبب وحدك، يا عزيزتي. في الواقع، لم أكن أريد أن أتسلّم الطرد بل حامله. آه، كاتيا...

والتفت إلى الفتاة التي دخلت. وأردف: «الآنسة جارفيه تودّ الخلود إلى النوم. فهلاً رافقتها من فضلك؟ تصبحين على خير، يا آبي».

لم تعرف آبي لاحقاً ما إذا ردّت على كلامه، لكنها تعتقد أنها لم تفعل.

***

٥ ـ الزمن يشفي الجراح

إذا ما ظنت آبي أنّ النوم سيداعب جفنيها ما أن تضع رأسها على الوسادة، فقد أخطأت إذ جافاها النوم بالرغم من تعبها الشديد. راح عقلها يعمل بأقصى طاقته، يستعيد الأحداث التي جرت مؤخراً من دون كلل، ويكافح ليجد تفسيراً منطقياً لها، لكن من دون جدوى. حتى ردود فعلها هي، كانت مزيجاً غريباً من الغضب والابتهاج، وإن كان الشعور الأخير هو الأبرز. من هي المرأة التي قد تشعر بالإطراء أو الإثارة لأنّ رجلاً، تخلّى عنها في الماضي، يتلاعب بها؟ لقد وعدها بأن يعود لكنه لم يفعل. ثمة شيء من الساديّة في تصرفاته، أما تصرفاتها هي. . . فبالكاد تفهمها، إلاّ أنها تميل على ما يبدو إلى تدمير ذاتها.

راحت تضرب الوسادة بقبضتيها وترجو أن تتمكن من النوم. بدت الساعات طويلة قبل أن يزورها النسيان، لكن حين فعل، نامت نوماً عميقاً. عندما فتحت عينيها في التاسعة صباحاً وجدت كاتيا تقف قرب سريرها وهي تحمل صينية، فتمكّنت من الابتسام وجلست في السرير. تمطت بكسل وكبحت تثاؤبها قبل أن تقول: «لقد نمت جيداً، لكني خجلى. . . فأنا لا أبقى عادة في السرير حتى هذا الوقت».

ـ يقول السيد زاك إن الآنسة جارفيه تشرب الشاي في السرير عند الصباح.

ووضعت الصينية على ركبتي آبي من دون أن تلاحظ اللون الحار الذي اكتسح وجنتيها. استشاطت غضباً في سرّها، فكيف يجرؤ على إعطاء هذه المعلومات الشخصية لأيّ كان! فقد يصل الخدم إلى استنتاجات خاطئة. . .

ـ معظم الأنكليز يشربون الشاي عند الصباح.

ـ نعم، هذا ما قاله.

أزاحت الفتاة الستائر، ما سمح للضوء الساطع بالدخول إلى الغرفة، وقالت: «الكثير من الثلج! ما يذكّرني بلودز».

حرّكت آبي الشاي وهي تقول: «أخبرني السيد ماغواير أنك جئت وأمك من بولندا. لا بدّ أنك تحنّين إلى بلادك».

ـ نعم، اشتقت لأصدقائي، لكن هنا. . . الحياة سهلة جداً.

كان الفطور ممتازاً: سلطة فواكه، وخبز ساخن مع الزبدة والمربى، وفنجان من الشاي. وعندما أنهت طعامها، أحسّت أنها متلهّفة للخروج، فرمت الأغطية جانباً وتوجّهت إلى النافذة.

في الخارج، كانت الشمس تسطع بعد أن توقف الثلج عن التساقط، فيما تحوّلت الحديقة إلى أرض العجائب. . . بدت الأشجار التي تسوّرها جليلة، وقد غطا الضيف الأبيض المتألق كل غصن فيها.

كانت على وشك أن تبتعد عن النافذة حين لفتت انتباهها فجأة حركة عند إحدى زوايا البيت، وظهر أمامها وجه صغير في بذلة تزلّج حمراء. رأت كاتي تبذل جهدها لتركض، لكن قدميها تغرقان في الثلج مع كل خطوة تخطوها. كانت تجد صعوبة في التقدّم، وما لبث أن أدركها الرجل الذي يرتدي بذلة سوداء. . . صرخت برعب مرح حين أمسكها والدها من خصرها ورفعها إلى الأعلى ليضعها في العربة التي يجرّها.

إنهما يستمتعان برفقة بعضهما البعض، ويبدو هذا جلياً، ما حرّك

شعوراً غريباً في قلبها. لا يمكن أن يكون ما تشعر به هو الغيرة، فهي ترفض ذلك، وكاتي على أيّ حال هي ابنة زوجته المتوفاة والتي لا بدّ أنه أحبها. وقفت للحظات معدودات تنظر إليهما وقد تملّكها شعور قويّ ومؤلم بأنها منبوذة.

شيء ما لفت انتباه زاك، فوقف طويلاً ينظر إلى آبي بحدّة جعلت جسدها يقشعر. تراجعت إلى الخلف ولفّت ذراعيها على صدرها وكأنها تحاول أن تحمي نفسها. وفجأة، رأته يبتسم ابتسامة عريضة وتحرّكت شفتاه وهو يكلم ابنته التي التفت إلى النافذة وتقدّمت راكضة بشكل أخرق ومتعثر بسبب الثلج.

ـ آبي!

ثم ألقت نظرة على أبيها وصححت: «آنسة آبي، أرجوك، أرجوك، انزلي فاللعب بالثلج ممتع».

وكأنما ليبرهن كلامها، وليضيف مزيداً من الثقل إلى طلبها، تقدّم زاك ورفع الفتاة ليضعها على كتفيه لتكمل عملية اقناعها.

وجاء صوته مكبوتاً عبر الزجاج المزدوج: «انزلي يا آبي. الطقس ليس بارداً كما يخيّل لك».

هزّت رأسها غير مصدّقة، واثقة من أنه مخطىء ومن أنّ الطقس بارد كما يخيّل لها. فهي لا تزال تتذكر الرياح القارسة التي استقبلتها عند وصولها إلى مطار لوغان الدولي. كانت تتوقّع البرد، لكن، من جهة أخرى، ليس لديها ما تفعله سوى الاستفادة قدر الإمكان من وقتها. لوّحت لهما بيدها، واستدارت متوجهة إلى الحمام، وهي تتساءل عما يمكنها أن ترتديه لصنع رجل ثلج في حديقة قصر في بوسطن، وهو مشهد لم تتخيّله يوماً.

لهذا، ارتدت السروال الذي كانت ترتديه أثناء السفر، لأنّ

خياراتها محدودة، وانتعلت حذاءها الجلدي الأسود، فبدا لباسها مناسباً. إلاّ أنّ الحذاء والسروال الباهظي الثمن، ليسا مصممين لهذا الطقس الرطب، وهي لا تنوي إفسادهما إرضاءً لنزوات زاك ماغواير. أما الكنزة الصوفية الصفراء اللون فأبرزت لون شعرها الداكن. وبعد أن سرّحت شعرها ووضعت القليل من الماكياج، شعرت أنها جاهزة لمواجهة العالم. حتى زاكاري ماغواير! نزلت إلى الطابق السفلي وتوجّهت إلى المكتبة حيث وقفت عند النافذة الواسعة تتأملهما وهما يمرحان ويلهوان.

ـ من هنا.

أشار زاك إلى الطريق فلم تجد صعوبة في اتباع تعليماته، سارت في ممر ووصلت إلى مستنبت زجاجي حيث درجة الحرارة متدنية للغاية. كانت قد وقفت تتأمل ما حولها، من ألواح زجاجية ملوّنة وأرضية سوداء وبيضاء ونباتات لامعة في أحواض ضخمة، حين شعرت بهواء بارد يلفحها مع وقوف زاك ماغواير عند عتبة الباب ينظر إليها.

شعرت على الفور أنّ قلبها يتخبّط بين أضلعها، والاحمرار يزحف إلى وجهها. كانت نظرته متمهّلة، متملّكة، وهي تطوف على ملامحها. لاحظت ومضة استحسان في تلك النظرة وهي تتأمل قامتها قبل أن تعود إلى وجهها من دون عجل. أما صوته حين تكلّم فكان... حنوناً، هذه هي الكلمة التي خطرت لها، لكن لا بدّ أنّ مخيّلتها تجمح وتخونها. أم لعلها تتمنّى ذلك؟

ـ آبي.

وصمت فيما استمرّا في النظر إلى بعضهما البعض، ثم أردف وكأنّ الكلمات تسحب منه رغماً عنه: «هل نمت جيداً؟».

www.elromancia.com

ـ نمت . . . جيداً واستيقظت مع وصول الفطور .

وكانت على وشك أن توبّخه على المعلومة التي قالها لكاتيا، لكنها عدلت عن رأيها، إذ بدا لها فجأة أنّ من الأفضل تجاهل هذا الموضوع .

قالت : «المكان هادىء جداً هنا» .

بدا مذهولاً للحظة ثم ابتسم وقال : «يسّرني ذلك . لا بدّ أنك كنت مرهقة» .

ـ ظننت أنني قلت ذلك مراراً وتكراراً . كانت الرحلة طويلة .

لم يكن تعبها بسبب الرحلة وحدها بل بسبب الضغط النفسي الذي تعرّضت له طوال اليوم . وقد أدركت ذلك جيداً، ولا بدّ أنه هو أيضاً فعل .

وتأملها مجدداً ببطء قبل أن يقول : «إذن . . . تودّ كاتي أن تنضمّي إلينا، لكنك لا تستطيعين الخروج بهذه الملابس» .

اعتبرت كلماته هذه انتقاداً، فجاء ردّها حاداً : «لو كنت أعلم ما ينتظرني، لحملت معي بزّة التزلّج وسترة مناسبة» .

قطّب وقال : «إذن . . . أنت تتزلجين، فقد تساءلت عن ذلك» .

إنه يعرف القليل القليل عنها، بالرغم من المشاعر الجيّاشة والملتهبة التي كانت بينهما .

ـ لست بارعة، لكني أتزلج . تزلجت في اسكوتلندا وفي النمسا في السنتين الأخيرتين .

ألقى نظرة سريعة على ساعته وتوجّه إلى الباب قائلاً : «حسناً! إذا استطعت أن أجد «اريك»، فقد يتمكّن من ايصالنا إلى مركز التزلّج لنتزلج ساعة أو ساعتين» .

ومن دون أيّ تفسير إضافي، خرج متوجّهاً إلى المرآب الكبير الذي تصوّرت أن أسطولاً من السيارات يصطف فيه . إنما بدا لها أنّ الطرقات

لا تزال خطرة للسفر بعيداً .

إلاّ أنها بذلك، لم تأخذ في الحسبان قدرة زاك ماغواير على التعامل مع المواقف . وبعد ساعة، نقلتهم طائرة هليكوبتر من منصّة خلف المنزل لينضموا إلى مئات المتزلجين المصممين على الاستفادة من هذه الفرصة الموسمية .

راح زاك يطمئن كاتي التي تذكّرت فجأة السقطة التي تعرّضت لها في السنة الماضية : «ستتزلّج على المنحدرات السهلة أولاً يا عزيزتي . ستكونين في أمان» .

أمسكت آبي اليد الصغيرة وابتسمت للفتاة مضيفة : «أنا أيضاً أشعر بالأمان على المنحدرات السهلة يا كاتي» .

ـ أظن أنك تكذبين .

ثم التفتت إلى أبيها تسأله : «أليس كذلك يا أبي؟» .

ـ تكذب؟ من تعنين؟ آبي؟

وتبادلا نظرات مرحة من فوق رأس الفتاة الصغيرة، قبل أن يردف : «لا أصدّق ذلك» .

ـ قالت إنها لا تجيد التزلّج جيداً . وستبقى معي على المنحدرات السهلة لتأخذ معي الدروس وأنا لا أصدّقها .

ـ ربما ليس من الأدب أن تقولي لها ذلك .

ـ لكنني بذلك سأكذب أيضاً، أليس كذلك؟

ـ حسناً، ليس بالضبط . لكنك لن تقولي الحقيقة كاملة وحسب .

قطّبت كاتي وهي تحاول فهم كلامه ثم غيّرت الحديث وسألت : «هل خفت في الهليكوبتر يا آبي؟» .

ـ ربما بعض الشيء .

شعرت بنظرات زاك عليها، فركّزت انتباهها على الطفلة، رافضة

أيّ تواصل حميم معه، وأضافت: «إنها رحلتي الأولى. وماذا عنك؟».

ـ لم أخف، فقد ركبت الهليكوبتر مراراً، أليس كذلك يا أبي؟

ـ حسناً، مرتان على الأقل.

ـ آه، أبي!

ومن ثم غيّرت مجرى الحديث بسرعة: «كدنا نصل. يجب أن تكوني مستعدة للقفز يا آبي والآ . . . ».

ولحسن الحظ، تمكنوا جميعاً من الوصول وما لبثوا أن انضموا إلى الجموع التي كانت تتراشق بالثلج وتصرخ وتقع، مستمتعة بالثلج المتساقط للمرة الأولى هذا الشتاء. ولدقائق معدودة، رعى الراشدان الطفلة حتى اعتادت الثلج تحت قدميها. بدوا كعائلة متماسكة تقريباً، وهذه الفكرة جعلت آبي تشعر بالاستياء. لذا، تملّكها الارتياح حين افترقوا، فذهبت كاتي لتلقّي بعض الدروس على يد مدّرب، وتوجّهت آبي إلى المنحدرات السفلى قبل أن تجرب حظها في أماكن أصعب، أما زاك. . . فغاب عن ناظريها بين مجموعة من المتزلّجين. لاحقاً وفيما كانت تتزلج لتنضم إلى كاتي، تنبّهت للقامة القوية المتشحة بالسواد قربها، وأدركت أنه زاك. وبالرغم من قراراتها كلها، شعرت بنبضها يتسارع.

توقفا على بعد خطوات من مجموعة الأطفال وقال: «علمت أنك ستكونين أفضل مما تدّعين».

ومن دون أن تجيب، رمقته بنظرة جانبية أرادت أن تحمّلها معنى الملل، لكن سرّه أن يسيء تفسيرها. وبما أنها كانت لا تزال تنظر إليه، لم تستطع إلاّ أن تعجب بلمعان أسنانه البيضاء في وجهه الأسمر الذي يستحيل تجاهله. ولعل شخصه كله يعكس سيطرته، وموقفه القوي، بعينيه المخفيتين خلف عتمة تعكس الضوء والثلج والمتزلجين.

ـ النظر إليّ باستنكار ورفض لن يجعلني أبدّل رأيي يا آبي.

كل ما فيه بدا فجأة أكثر بهجة وأقل كآبة من الماضي القريب.

رفعت أحد حاجبيها، تكاد لا تثق بقدرتها على الكلام، وأملت أن تجعلها هذه الحركة تبدو واثقة من نفسها ولا مبالية أكثر مما هي عليه في الواقع.

ـ لن أحاول أبداً أن أجعلك تبدّل رأيك، فأنا أعرف حدود قدراتي، وأنا واثقة من أن جهودي ستضيع سدى.

ـ أتساءل. . . ما الذي يجعلك واثقة من ذلك يا آبي؟

وبدلاً من أن يزعجه تأكيدها، بدا لها مهتماً برأيها حين سألها: «هلاّ شرحت لي معنى كلامك؟».

ـ ظننت أنّ الأمر جليّ. إذا كنت متغطرساً بما يكفي لتحملني على اجتياز الأطلسي في مهمة غبية، من دون أيّ اعتبار أو اهتمام لمشاريعي وخططي الخاصة، فلا أظنك تهتم بكلامي مثقال ذرّة. أنتم رجال الأعمال. . . ».

كانت الآن تعبّر عن مشاعرها نحو توم، إذ اصطبغ كلامها بالمرارة: «متشابهون. . . لا تهتمون إلاّ بمصالحكم».

ردّ بصبر ومن دون أن يظهر أيّ ضغينة: «أخشى أن هذا يحصل لأن الواحد منا يكون مسؤولاً وحده عن شركة كبرى. ففي النهاية، ما من شخص آخر نعتمد عليه فيتطوّر الصرح أو ينهار بسبب قراراتنا. لذا، ما يبدو كغطرسة، أمر لا مفرّ منه، لكنك مخطئة في أمر واحد. . . ما كنت لأحضرك إلى هنا، لو لم أكن مهتماً، ومهتماً جداً، بوجهات نظرك. إنما، لم تظهري حتى الآن أيّ رد فعل على ما وصفته بالمهمة الغبية».

جاءت كلماتها متقطعة وقد برزت لكنتها بشكل جليّ: «هذا ممكن، لأنّ لا رأي لديّ. من جهة أخرى، لعل مشاعري قوية وعنيفة

بحيث لا أجرؤ على التعبير عنها، إنما لا يمكنني أن أتخيل ما خطر في بالك».

ـ أحقاً لا يمكنك ذلك؟

نبرته المشككة زادت من عصبيتها، لكنها لم تجبه فأضاف: «لكن الأمر واضح بما يكفي».

وهو واضح بالطبع، وقد تطلب عشر ثوانٍ كي تفهمه، فهو يقترح استكمال ما تركه خلفه في النورماندي. سيلهو لبعض الوقت ثم ينساها كما فعل من قبل. إنه مخطط يمكن تكراره، إنما... الفرق الوحيد هو أنها لم تعد تلك الشابة الساذجة. ففي السنوات الخمس الماضية، قاوت العديد من محاولات التقرّب منها وستتمكّن من مقاومته. ما من شيء في العالم سيجعلها... وانقطعت أفكارها مع اقتراب كاتي منهما بسرعة.

ـ أبي، أبي، حصلت على نجمة ويقول بادي إنّي سأتمكّن قريباً من الانتقال إلى صفه التالي، و...

أشاحت آبي بنظرها، غير قادرة على تبرير الدموع التي توشك على الانهمار، والغصة غير المتوقعة التي تملّكتها. اعتراها الغضب من ضعفها وأدركت أنها لن تتحمل هذا الموقف لمدة أطول. حتى أن فكرة المنزل في تينيريف مع توم وهارييت بدأت تصبح مغرية.

ـ سنسأل آبي.

صوت زاك قطع حبل أفكارها الصامتة، فرمشت بعينيها والتفتت إلى الطفلة من دون أن تدرك أنه لاحظ الدموع المخبأة خلال رموشها الداكنة والرجفة في صوتها، حين ردّت.

ـ تسألان آبي؟ ماذا ستسألان آبي يا ترى؟

ـ إذا كنت جائعة، فأنا أتضور جوعاً وأود أن آكل. إنهم يقدمون ألذ

بيتزا في العالم يا أبي.

وأخذت بيد كل منهما وراحت تتمايل بينهما منقّلة نظرها من أحدهما إلى الآخر، ثم سألت: «أتظن أنّ آبي ستحب الفلفل والفطر أم اللحم والجبنة؟».

ـ إنها تفضّل نوعاً آخر لكني لا أعرفه، وهي وحدها يمكنها أن تخبرك.

كانوا قد وصلوا إلى المطعم، فتركوا عدّة التزلّج في الخارج وانضموا إلى الحشود فيه. وفي النهاية، قرروا تناول الحساء واختاروا أنواعاً مختلفة من البيتزا، تذوقوها كلها وناقشوا طعمها ثم وضعوا لها علامات، لكن النتيجة لم تعجب أيّ منهم.

قالت كاتي: «على أيّ حال، النوع الذي اخترته كان الأفضل، أليس كذلك يا آبي؟».

ترددت آبي: «حسناً...».

ـ لذا، في المرة القادمة، عليك أن تختاري ما اخترته أنا اليوم.

قطّب زاك وقال: «حسناً، لست الوحيد الذي يتخذ القرارت بالنيابة عن الآخرين».

ابتسمت آبي ابتسامة خفيفة، قد تعتبر اعتذاراً عن قساوتها السابقة وقالت: «لا، لا بدّ أنّ هذا يجري مع الدماء في العروق».

دفع طبقه جانباً وانحنى نحوها قائلاً: «أتعلمين، هذا اللون يناسبك».

نظرت بشك إلى بزّة التزلّج الخضراء التي استأجرتها وردّت: «أحقاً؟ في الواقع، هذا ليس باللون الذي كنت لأختاره. لكن على الأقل، يمكن لأي كان أن يراني ويلاحظ وجودي».

ـ ينبغي ألاّ تشكي في ذلك يا آبي. فالناس سيلاحظونك دائماً حتى

لو وقفت وسط الحشود.

ووضع يده على يدها يغطيها، لكنه ما لبث أن تراجع قبل أن تقوم بسحبها. الآن، أصبح لديها دليل! إنها حساسة على لمسته كما كانت دوماً. توترت أعصابها واستنفرت ما جعل حمرة الخجل تصبغ وجنتيها.

بدا أنه لاحظ ردّ فعلها وفسّره على هواه، إذ تمتم شيئاً يتعلق بالقهوة ووقف متوجهاً إلى الصندوق لطلبها. راقبته آبي بكآبة. ألن تكون الحياة أسهل لو أنه لا يتميّز عن الجميع؟ فهنا، في هذا المكان الراقي، حيث تكثر النساء الجميلات والرجال الوسيمون، بقي هو متفرداً ومحطاً للأنظار، لا سيّما أنظار النساء. ويمكنها أن ترى الآن اثنتين فاتنتين تراقبانه، إحداهما شقراء والأخرى حمراء الشعر.

عندما أنهوا الوجبة، عادوا إلى المنحدرات ليتزلجوا. وما أن مالت الشمس إلى المغيب حتى قرروا العودة إلى المنزل. وفيما كانت آبي تراقب كاتي في الدقائق الأخيرة من درسها، وزاك ينهي أعماله على هاتفه النقّال، لفت انتباهها صوت طائرة تقطع السماء الشاحبة.

وما هي إلاّ ثوانٍ حتى أدركت معنى هذا، فلفتت انتباه زاك إلى الأمر بنبرة ساخرة مبررة: «من كان ليعتقد ذلك؟ يبدو أنّ مطار لوغان الدولي مفتوح، بالرغم من المعلومات التي أشارت إلى العكس».

لم يفاجئه كلامها، بل قال: «على الأرجح. بما أنّ الثلج لم يعد يتساقط، لا بدّ أنهم تمكّنوا من إزالته عن المدارج، ربما للرحلات الداخلية فقط».

ـ وربما إلى مطار هيثرو أيضاً.

ثم ابتسمت ابتسامة عذبة مصطنعة وأضافت: «عندما نصل إلى المنزل، ربما تسمح لي بالاتصال بالمطار لمعرفة حقيقة الوضع؟».

ـ بالطبع، يمكنك ذلك، لكن. . .

ـ قلت لك إنني أخطط لقضاء العطلة في تينربف.

كانت الكذبة قد بدأت تقنعها هي أيضاً. أما هو فبدا فجأة متباعداً ومنزعجاً.

ـ لا يمكنني أن أتصوّر أنك تنوين ذلك فعلاً.

ـ بالطبع أنوي ذلك، فقد وعدت توم وهاريت بقضاء الميلاد معهما.

ـ هاريت! وتوم! أنا لا أفهمك. . .

قالت بهدوء وكأنما الشخص المذكور لا يزعجها البتة: «هاريت هي صديقة توم».

راح يتذكر ما قالته من قبل، لكن. . . وضاقت عيناه وهو يتأمل وجهها، ثم قال: «ألا. . تمانعين؟ علاقة زوج أمك بهذه. . . المرأة؟».

كان يكافح ليفهم. ففي فرنسا، لفتته هذه العلاقة الوثيقة والحميمة بينهما وراح يتساءل. . .

ـ أمانع؟

وقطّبت بألم بما يثبت أنها لم تُشف بعد من خيانة توم، ثم أردفت: «بالطبع أمانع. أمانع جداً، لكن. . . على الأقل، حسناً. . . الزمن. . . قادر على شفاء الجراح على الأرجح».

ـ فهمت. إنها وجهة نظر فلسفية جداً.

كان شرساً في تهكّمه، لكن حين انضمت كاتي إليهما بذل جهده لإخفاء مشاعره، وأخرجهما بسرعة إلى حيث تنتظرهم السيارة لتعيدهم إلى البيت عبر الطرقات التي أزيل الثلج عنها.

عندما وصلوا، توجّه كل منهم إلى غرفته واستمتعت آبي بحمام

ساخن بعد الجهد المضني الذي بذلته اليوم والذي أتعب أعصابها. أراحها الحمام من بعض الألم في عظامها، وحين جلست إلى طاولة الزينة تجفف شعرها، كانت قد اتخذت قرارها. فما أن ترى زاك حتى تصرّ على معرفة الحقيقة عن حركة الطيران. وبالرغم من أنّ الأمر بدا غريباً، إلاّ أنّ تصميمها كان أضعف مما توقّعت نظراً للظروف. لكن لعل السبب في ذلك يعود إلى تأثير الحمام الساخن.

وفجأة سمعت طرقاً خفيفاً على بابها، فردّت من دون تفكير، متوقّعة أن ترى كاتيا التي أتت على ذكر الشاي قبل قليل. لذا، حين دخل زاك، تراجعت إلى الخلف وشدّت عباءتها المطرزة بحركة بدت لها لاحقاً غير لائقة بامرأة واثقة من نفسها بل أشبه برد فعل فتاة مراهقة.

ـ زاك.

شعرت بالخجل، واكتسحتها موجة من التوق الشديد، ما جعلها ترتجف. ظهر جلياً أنه خرج من الحمام لتوه، إذ كان شعره رطباً وقد لفّته غيمة من العطر. بدا مذهلاً في سرواله الأسود وكنزته الصوفية الأرجوانية اللون.

ـ آبي.

هل أصابته العلّة نفسها؟ مرّت لحظة عاطفية حيث بدت أسنانه مطبقة بشدة، ثم بعد حين أردف: «آبي، كان عليّ أن أعلمك من قبل، لكن بعض الأشخاص سيزوروننا هذا المساء ومن بينهم جد كاتي».

ـ والدك؟

لقد تكلّم في الماضي عن والده غالباً، لكن الآن. . .

ـ لا، توفي والدي منذ فترة من الزمن. في الواقع، باتريك هو والد زوجتي الراحلة. زوجته ووالدي شقيقان.

فعلّقت بجفاء: «أمر معقّد».

فرد بلهجة تحمل معنى خفياً: «أكثر تعقيداً مما تظنين، لكنه تقليد سنوي. يجتمع بعض الأصدقاء القدامى هنا سنوياً قبل أن يسافروا لقضاء الميلاد في مناطق مشمسة. يؤسفني أن أفرضهم عليك، إنما. . .».

قاطعته لترد بحدّة: «لا داعي لأن تفرضني على أحد، سأكون سعيدة في البقاء هنا في. . .».

صرّ أسنانه وقال: «آبي، أتتعمّدين تصعيب الأمور؟».

ـ أنا؟ أنا أصعّب الأمور؟

ابتسم ابتسامة باهتة فيما راحت عيناه تتأملان شعرها المنسدل على كتفيها، وأجاب: «في هذه اللحظة، نعم. أنت تصعّبين الأمور حين تختارين. . . تختارين تحريف كلماتي. قلت إني آسف لأني أفرضهم عليك، وليس العكس».

ـ آه.

ـ اسمعي يا آبي، هؤلاء الأصدقاء سيصلون بعد حوالى الساعة. أودّ أن تقابليهم، وبعدئذ يمكننا إذا أردت أن نخرج لتناول العشاء. ستبقى جورجيا مع كايت و. . .

ـ لا أشعر برغبة في الخروج.

وهزّت كتفيها فلفتت نظره إلى مظهرها وإلى قدميها الحافيتين الغارقتين في السجادة السميكة. ولسبب غير منطقي، سرّها أنّ الوقت تسنّى لها لتطلي أظافرها.

ـ أشعر بشيء من التعب بعد هذا الجهد غير المعتاد. وسأكتفي بشيء بسيط آكله، عجة بالبيض أو ما شابه. ولا أمانع إذا ما. . .

وتدافعت الذكريات في رأسها، فماتت الكلمات على شفتيها فيما وقفا يحدقان إلى بعضهما البعض. وسمعت نفسها تتلعثم وهي تقول:

«وعليّ أن أنظّم أموري لأعود إلى بلادي. فهل من خبر من المطار؟».

ـ بالله عليك، ألا يمكن للمسألة أن تنتظر حتى الصباح؟

بدا واضحاً أنّ أعصابه في ذروة التوتر كحال أعصابها.

ـ قلت لك حين وصلت في الأمس...

وتساءت في سرّها: أوصلت في الأمس فقط؟ ثم أردفت بصوت واضح: «قلت لك إنه من الضروري أن أعود في أسرع وقت ممكن فالميلاد بعد يومين فقط».

اتجه نحو الباب قائلاً: «اسمعي، يجب أن أذهب. يمكننا أن نناقش المسألة لاحقاً بعد رحيل الضيوف، لكن... لكن سيسرّني أن تنزلي وتنضمّي إلينا يا آبي. أرجوك».

وقف زاك خارج الغرفة للحظات وقد بدا وجهه متوتراً، ثم ضغط أصابعه بشدة على عينيه. يا لها من فوضى أحدثها! ما الذي خطر له ليحضرها إلى هنا؟ لقد اتخذ الفضول عذراً له، لكن المسألة أبعد بكثير. الانجذاب... حسناً، يكفي أيّ رجل تجري في عروقه دماء، أن ينظر إليها... نعم، إنه انجذاب متقّد. في الداخل، كاد يفقد السيطرة على نفسه... وحدته رغبة شديدة إلى ضمّها بين ذراعيه...

ردّ رأسه إلى الخلف بفزع بعد أن اتضحت له نتيجة التحليل الذي أجراه لردود فعله، حتى بعد أن سمع منها شخصياً أنها لا تزال وفية لزوج أمها غير الشريف كما عهدها. ووجد صعوبة في فهم ضعفه. نعم، كانت مشاعره نحوها ضعفاً، فهو يرغب فيها كما لم يرغب في أيّ امرأة من قبل، يريد أن يضمها إلى صدره... لكنه لا يريدها في قلبه حيث كانت من قبل، فقد عاش التجربة من قبل وجاءت النتيجة مدمرة ومأساوية.

***

٦ ـ درس مرير

عندما أصبحت آبي وحدها في غرفة النوم، جلست تحدّق إلى الفراغ أمامها، من دون أن ترى شيئاً. فهي من جهة، لا تزال مضطربة ومغتاظة من هذه الأحداث المربكة. وكانت مصممة، بالرغم مما قاله زاك، على عدم المشاركة في الحفل. فلا يمكن لأحد أن يجبرها، كما لن يجرّوها من غرفتها وهي تصرخ... وكم سيسعدها أن يعلم زاكاري ماغواير أنّ ثمة شخص واحد في العالم غير مستعد لتنفيذ أوامره فوراً. في المكتب، كانت تتلقى راتبها لقاء خدماتها لكنه لم يشتر روحها وجسدها.

ألم يفعل؟ قهرها هذا السؤال الصغير الغدار الذي لمّح إلى ما يخالف أفكارها. إن الحياة أسهل بكثير عندما يكون الشخص الآخر مخطئاً. لا يمكنها أن تظهر كامرأة ضيقة الأفق، أفسدها الدلال. كما أنهم... أمضوا يوماً جيداً وجميلاً في التزلّج ولن تخسر شيئاً إذا ما كانت عادلة ومتعقّلة... مهما كانت عديدة المظالم المخفية خلف الواجهة الظاهرة.

واعترفت رغماً عنها بأنها تشعر بفضول شديد حيال زاك ماغواير وأقربائه. فكاتي فتاة صغيرة رائعة، لذا سيكون من المثير للاهتمام التعرّف إلى جدّها قبل العودة إلى الوطن. لكن هذه الفكرة أثارت فكرة أخرى، فزاك لم يشرح لها هذه العلاقة المعقّدة التي نتجت عنها كاتي.

عمه؟ جدّها؟ لا يمكن أن يعني هذا أنّ زاك تزوّج . . . ابنة عمته؟

كان عقلها لا يزال يحلل هذه المسألة فيما هي تنزل السلم في أحد جوانب البهو المستدير الشكل. توقّفت حين رأت زاك يرّحب برجل طويل القامة، وسيم، أشيب، ترافقه امرأة أصغر منه سناً، ابتسمت لزاك حين أحنى رأسه ليقبّل يدها.

وفجأة، توقّفت الأحاديث والضحكات عندما لاحظوا وجودها، فأكملت طريقها وهم يراقبونها وكأنها نجمة السهرة الأولى. كانت تشعر بالثقة إذ أدركت أنها تبدو في أحسن أحوالها، أو على الأقل. . .

كان قميصها الأبيض المفضّل لديها، بالرغم من أنه لا يحمل توقيع أيّ مصمم أزياء شهير، وقد اشترته السنة الماضية أثناء إحدى رحلاتها إلى بروكسل. ومع هذه التنورة المتماوجة التي تظهر خصرها الرفيع. . .

وما هي إلاّ لحظات حتى وصلت إلى أسفل السلم، فتم تقديمها للحاضرين. سجّلت في ذاكرتها اسم باتريك اوبراين، أما اسم المرأة فلم تسمعه آبي إذ خطفت كانّي الأنظار حين نزلت السلالم ركضاً متوجهة إلى جدّها. سمح لها هذا الأخير بأن تجرّه بعيداً فيما تبعهما الآخرون بخطى أبطأ إلى قاعة استقبال، تتصاعد ألسنة اللهب من المدفأة فيها وقد اصطف الخدم حاملين صواني المشروبات والمقبّلات.

ـ أرجو أن أتمكّن من التحدّث إليك لاحقاً يا آبي.

رماها باتريك بهذه الكلمات من فوق كتفه، فيما هزّت ليز، المرأة التي قدمت معه، كتفيها، ووضعت يدها على ذراع زاك وكأنها اعتادت ذلك. بعدئذ، وصل العديد من الضيوف من آل ماغواير وآل اوبراين، فراحت آبي تحاول أن تخفف من شعورها بأنها متطفّلة.

بذلت جهدها لتكون اجتماعية، وتبادلت بعض النكات مع

الحاضرين، وأجابت على اسئلة عامة طرحت عليها مثل: ما رأيك ببوسطن؟ كم ستطول فترة إقامتك؟ هل تعرفين زاك منذ زمن؟

وكردّ على السؤال الأخير، رأت أنّ من الأفضل أن تلتزم بالحقيقة قدر الإمكان، لا سيّما حين رأت زاك متوجهاً نحوها فيما هي تجيب عن السؤال نفسه للمرة الثالثة. وشعرت بالارتياح لسماع صوته يجيب عنها.

ـ التقينا خلال الفترة القصيرة التي أمضيتها في أوروبا منذ سنوات قليلة، لكننا فقدنا الاتصال ببعضنا حتى مؤخراً، و. . .

وقاطعته بجرأة كبيرة: «تقصد حين تجاهلتني في حفل عيد الميلاد الذي أقيم للموظفين منذ أسبوعين؟».

وابتسمت تتحداه، فيما بدت عيناها واسعتين وبريئتين. بادلها الابتسام، لكن عينيه ضاقتا. ولعله أظهر للآخرين أنه معجب بشجاعتها إلاّ أنّ آبي أدركت أنه يحاول أن يحطّمها: «لكني شرحت لك الأمر، لم أكن أعلم أنك من بين الحضور، وبما أنك غيّرت شهرتك. . .».

سأل باتريك وهو ينضمّ إليهم: «غيّرت شهرتك؟».

ثم هزّ يده ليبدد الدخان المتصاعد من سيجاره الضخم قبل أن يضيف: «عندما يتعلق الأمر بالشابات الجميلات فهذا يعني الزواج».

ـ لا يا باتريك، على ما يبدو لا.

كان زاك لا يزال يرفض إطلاق سراح نظراتها، بل راح يحدّق إليها بذاك التعبير المتحدّي الذي يسعى إلى تسريع نبضات قلبها وقال: «على الأقل. . . هذا غير صحيح على حدّ قولها».

ردّت وقد برزت لكنتها الفرنسية كعادتها عندما تتعرض لضغطٍ نفسيّ شديد: «استعدت وحسب شهرتي عند الولادة وتخلّيت عن شهرتي الأخرى».

سرّها أن تشرح الأمر علناً، كي لا تطرح عليها أيّ أسئلة أخرى. وزحف الاحمرار إلى وجنتيها فيما حدّقت إلى زاك بتحدٍ.

رفع زاك حاجبيه مشككاً، لكن شيئاً ما حدث، ولحسن الحظ، فتحوّل الحديث عن مجراه وعاد إلى مساره المعتاد. كان صوت كاتي العالي مسموعاً وهي تصف انجازاتها على المنحدرات، ثم ما لبث الضيوف أن بدأوا بالتفرّق استعداداً للسفر وقضاء عيد الميلاد في بلاد مشمسة.

ـ آسف يا آبي لأنه لم يتسنّ لنا الوقت لنتحدّث، لكن ربما...

ورمق باتريك زاك بنظرة ثم أردف: «إذا بقيت حتى عودتنا فستتمكن من تغيير ذلك».

ونظر إليها ومن ثم إلى كاتي المتعلقة بيده وابتسم قبل أن يشعث لها شعرها.

ـ أشك في أن أبقى هنا لشهر يا سيد اوبراين. في الواقع، أنا متشوّقة للعودة على الفور، فلدّي الكثير من...

ـ بوسطن مكان رائع لتمضية الميلاد. ولولا الطقس البارد وداء المفاصل الذي أعاني منه، لفضّلت أن أبقى هنا بدلاً من أيّ مكان آخر في العالم، لكن... أظن أن هذه الفتاة الصغيرة قد تعبت، ألا تعتقدين ذلك؟

ـ كان يومها طويلاً ومتعباً.

ـ حسناً! أفترض أن وقت الرحيل قد حان.

والتفت حوله مع عودة ليز برفقة زاك الذي يحمل معطفيهما، وأضاف: «سنسافر باكراً، وغداً مساءً ستحط الطائرة في الدفء، ما قد يفيد مفاصلي التي تؤلمني».

ـ ليتك تبقى وتمضي الميلاد معنا يا جدي!

كانت عينا كاتي قد أصبحتا الآن أوسع، وتلوّن خداها فيما راحت تمصّ إصبعها.

ـ ربما في السنة القادمة يا عزيزتي. هذه المرة لديك آبي وهي هبة عظيمة. فكّري في الأمر، فلولا آبي، لما حصلت على هذه الدمية الرائعة التي أريتني إياها منذ قليل. والآن، أظن أنّ عليك الصعود إلى الأعلى لتضعك جورجيا في السرير.

عند سماعها هذا الاقتراح، هزّت كاتي رأسها من دون اقتناع كبير. وبعد لحظات، ومع رحيل آخر ضيف، لم تعترض حين حملها والدها إلى الطابق العلوي.

بعد إزالة آثار الحفل الصغير، بقيت آبي وحدها في الغرفة وشعرت بالإثارة والادرينالين اللذين أبقياها نشيطة يزولان. فجلست في المقعد الموضوع أمام المدفأة وراحت تحدّق إلى النار المستعرة، وهي تتمنى لو أنها لا تشعر بهذا الفراغ وهذه الكآبة.

ما تشعر به ليس سوى رد فعل. فبعد ما عاشته في الأسبوعين الماضيين، من لقاء زاك الكافي لإلحاق الضرر بوضعها النفسي، إلى وجودها هنا في منزله، ثم تعرّفها إلى ابنته، فضلاً عن أصدقائه وأقاربه... كل هذا كافٍ لجعل المرء يفقد توازنه وعقله. ووجدت نفسها عاجزة عن الفهم، فإذا كان يسعى إلى علاقة عابرة، كان من المنطقي أن يقوم بخطوته هذه في لندن. لقد تخلى عنها بقساوة منذ خمس سنوات، وربما كان حينذاك يخون زوجته أو خطيبته، وها هي الآن توافق على خططه من دون أدنى اعتراض، و...

انفتح الباب خلفها، وكانت معظم الأضواء قد أطفئت فغرقت الغرف في ظلام شبه تام. سمعت وقع خطى، مجرد خطى خافتة على السجاد السميك. لن تلتفت إلى الأعلى، مهما تسارعت نبضات قلبها

ومهما اقشعر جسمها.

ـ تجلسين هنا على ضوء النار...

أحسّت بمقاومته المماثلة لمقاومتها، وكأن وضعها يحيّره أيضاً، والكلمات تخرج من فمه رغماً عنه.

ـ ... تبدين... فاتنة.

عندما جلس على الأرض قرب مقعدها، أحسّت بمشاعرها تتأجج مغوية، وغير مرحّب فيها لأنّ عليها أن تقاوم رغبتها الشديدة، في الارتماء في أحضانه، ودفن وجهها في شعره الداكن كما...

كان قد خلع سترته، وبدا قميصه الأحمر متناسباً مع تنورتها ولم تعد تقوى على مقاومة الرغبة التي تملكتها في قلبها، الرغبة في الالتفات إليه، فأسندت رأسها إلى ظهر المقعد... النظر إليه متعة رائعة، وهذه هي المشكلة. ملامح قوية وشعر داكن... وأحست بطعنة ألم في معدتها حين تذكّرت الماضي، فعضّت على شفتها في محاولة منها لكبت صرخة التوق التي هددت بفضحها. ضوء النار الناعم هذا يدفع إلى الاسترخاء ويشيع الراحة... وحده إحساسها بضرورة حماية نفسها جعلها تسيطر على تشوّقها لمدّ يدّها، ولمس خدّه كما فعلت من قبل... إذا ما استسلمت لهذه الرغبة، إذا ما خطت الخطوة الأولى، فهي تعلم كيف سينتهي بها الأمر. وفيما كانت تتوق إلى البقاء معه، تذكّرت الألم... فقد علّمها الماضي دروساً مريرة عديدة.

ـ أحقاً؟

عندما ردّت أخيراً على إطرائه، رأى زاك بشيء من السرور كيف تبرز ألسنة النار لمعان عينيها، وتلقي الظلال على وجهها ما يظهر وجنتيها العاليتين، فتبدو أكثر غموضاً مما يذكر. لكن أصابعها كانت

مطبقة بإحكام، وقد ابيضّت مفاصلها. وارتجف صوتها بعد أن صمّمت على تجاهل الإشارات الحمقاء كلها: «لكن الآن...».

يجب أن تظهر له أنها ترفض أن يتلاعب بها، فعاودت الكلام بثقة أكبر: «زاك، أريد أن أعود إلى لندن في أسرع وقت ممكن. قلت لك إنّ لدي التزامات. أعني أن أبقى مع...».

غيّر سلوكه فجأة، فتخلى عن جلسته المريحة في الأرض وارتمى في مقعد قبل أن يقول: «لتبقي مع... زوج أمك. لقد قلت لي هذا».

ـ لا أرى لماذا يصعب عليك فهم هذا.

هذه الكلمات التي رمته بها بمرارة وقسوة ساعدتها على الالتزام بقرارها، وأضافت: «لديك التزاماتك العائلية، فلما لا تفهم أنّ لديّ التزاماتي أيضاً؟».

فردّ بتهكّم: «بالطبع. لكن قولي لي يا عزيزتي، إذا كنت تشعرين بهذا القدر من الالتزام نحو زوج والدتك فلما لم تعودي قادرة على تحمّل استخدام شهرته، الشهرة التي حملتها معظم أيام حياتك؟ لا بدّ أن السبب جوهري، فقد رأيت بأم عيني مدى تعلّقك بزوج أمك، كما سمعت ذلك من شفتيك».

عندئذ، التفت آبي وراحت تحدّق إليه مباشرة فقرأت على وجهه تعبيراً لم تستطع تفسيره، شيئاً يشبه الأسى ربما، لكنها ستكون غبية إذا ما سمحت لنفسها بتصديق ذلك.

ـ أنا...

وتوقّفت عن الكلام غير واثقة مما عليها قوله: «كلما ذكرت توم، يظهر عليك الانزعاج... أعلم أنك بقيت غاضباً منه كل هذا الوقت لأنه عارض... صداقتنا، لكنه كان يتعرّض لضغط شديد، لأن الأعمال أوشكت أن تنهار».

www.elromancia.com

كانت غبية لدفاعها عنه بعد كل ما حصل، لكن. . . وأردفت: «كانت أمي قد ماتت لتوّها. وعانينا الأمرّين معاً، لذا كنا بحاجة لبعضنا البعض».

كيف يمكنها أن تشرح ما حصل لشخص لم يعش هذه التجربة؟

في النهاية، تخلّى عنها توم بقساوة. في الواقع، رأت أنّ الأمر لا يحتاج لتفسير، فقد تحدّثت إليه عن هذا الموضوع. حينذاك، بدا أنه يفهمها، بما أنّ والدته ماتت قبل فترة وجيزة.

ـ بالله عليك يا آبي!

عنفه جعلها تقفز مصدومة. لكنه لم يصمت بل تابع كلامه سائلاً: «لمَ تتهربين من السؤال؟ فهل هذه ميزة عند بعض الناس؟ السياسيون خبراء، يكفي أن يتحدّثوا في أيّ موضوع غبي يخطر لهم ويتوقّعوا من المستمعين ألاّ يلاحظوا ذلك. في حال نسيت، سألتك لما استعدت شهرة أبيك، علماً أني اعتقد أن جارفيه أفضل من هايغ، لكن المسألة مسألة خيار».

ـ لأسباب شخصية، لا يتوجب عليّ أن أشرحها.

لم تخبر أحداً عن الشعور بالخيانة الذي تملّكها بالنيابة عن أمها. فأثناء سنوات الزواج السعيد ظاهرياً، حافظ توم على علاقته بهاريت، وعلى علاقات أخرى عابرة وفقاً للأحاديث التي تناهت إلى مسامعها في المكتب.

ـ ليس عليك ذلك، وأعلم ذلك. لكن ما دمت ترفضين أن تبرري لي التغيير، فلا تستغربي إذا ما توصّلت إلى استنتاجاتي الخاصة.

ـ هذا سخيف.

وهبّت واقفة بغضب ثم التفتت لتنظر إليه وهو يجلس كئيباً في مقعده، وقالت: «يمكنك يا زاك ماغواير أن تستنتج ما تشاء، لا يهمني

الأمر».

وكان هذا أسخف ما قالته في حياتها.

تحرّك زاك ببطء في كرسيه العميق ثم وقف، فانقلبت الأدوار وراح ينظر إليها من أعلى. بدت عيناه في ضوء النيران المتراقصة وكأنها ستنفجر غضباً. وفجأة، وبشكل غير متوقع، أصبح تعبيره ألطف وأنعم. مدّ يده وجذبها من عنقها يدنيها منه فلم تقاومه. تحركت أصابعه تداعب خدها الناعم، فتسارعت أنفاسها ما لفت انتباهه إلى صدرها الذي راح يعلو ويهبط بسرعة وكأنها عاجزة عن التنفّس.

وسمعت صوته ناعماً، ساحراً كما كان في النورماندي: «أخبريني يا آبي. كلنا نعلم أنّ الاعتراف يريح النفس. أخبريني لما غيّرت شهرتك؟ لما أنت مستعجلة للسفر إلى تنيريف لتكوني معه، في حين أنّ جلّ ما أريده في العالم هو أن تبقي معي هنا؟».

مرت دقيقة قبل أن تتمكّن من إخماد انفعالاتها التي تدور في دوّامة، وقبل أن تفهم معنى كلامه. بدا أنّ صوتها يتكلم من دون إرادتها: «وعدت. . .».

وترددت في قول الحقيقة: «وعدت توم وهاريت جزئياً بتمضية الميلاد معهما، وهما يحاولان إقناعي دوماً».

وقد فشلا حتى الآن، لكنها لم تشأ الخوض في هذا الموضوع. وعلى الفور، شعرت به يتصلّب وراحت عيناه تراقبانها كما لم تفعلا من قبل، ثم ضاقتا حين قال: «آه، ذاك الاسم مجدداً. غريب كم يتردد في أحاديثنا. . . أمر غامض».

ـ ما من شيء غامض في المسألة. إنها قصة معروفة في الواقع.

وارتجف صوتها لكنه عاد إلى طبيعته حين رأت أنّ من الغباء إخفاء ما هو معروف في انكلترا، فأردفت: «لم نكن نعلم في حياة أمي أنّ لديه

عشيقة. كانت هاريت سكرتيرتها، وعندما اضطررنا لبيع الشركة... انتقلا معاً للعيش في تينريف».

لن تخبره أنه أقنعها بالتخلّي عن أسهمها في الشركة، فهي تشعر بالخزي حين تتذكّر مدى غبائها لأنها سمحت له بالتلاعب بها.

- أبي.

كان الآن يشاركها ألمها، وقد أحاطتها ذراعاه وقرّبتاها منه أكثر، بالرغم من بعض الحذر.

- و... شعرت بالغيرة من تلك المرأة؟

- الغيرة؟ نعم، أفترض ذلك. شعرت بالغيرة وبغضب عارم.

واغرورقت عيناها بالدموع حين تذكرت كم كانت غاضبة وحمقاء، وكم تراكمت الأحزان في حياتها حينذاك. كانت هذه الخيانة الثانية قاسية ومؤلمة، خيانة من رجل وثقت به ثقة عمياء.

- غضبت لأنه خان أمي وشعرت بالغيرة بالنيابة عنها.

- فهمت.

أراح زاك ذقنه للحظات على أعلى رأسها، وحين أحسّ بالعبرات تخنقها وتجعلها ترتجف، همس محاولاً تهدئتها: «حاولي أن تنسيه يا آبي. قلت لك إنه لا يستحق العناء. لا يمكنه أن يؤذيك الآن».

- أجد صعوبة في مسامحته.

- يمكنني أن أفهمك.

لكنه شعر بالحاجة إلى الغوص أكثر في الموضوع، للتأكد من أنها تخلّصت من تأثيرٍ كان يراه ضاراً. وإذا لم يستغل هذه الفرصة فقد لا تسنح له فرصة أخرى.

- هل السبب هو خيانته لأمك؟ أم... أم لك يا آبي؟

- لي ولأمي. فقد أحبّته كثيراً وكانت زوجة مخلصة له.

- لكنه خانك أنت أيضاً، هل هذا ما تعنينه؟

- نعم. هذا ما عنيته بالطبع. كان مثلي الأعلى لسنوات، منذ تزوّج أمي. كان الأب الذي لم أعرفه يوماً. كيف كنت لتشعر لو عرفت أنّ لأبيك عشيقة؟

وبعزم، حررت نفسها من أحضانه وتراجعت إلى الخلف قبل أن تسأله: «كيف كانت زوجتك لتشعر... ؟».

ظهر في صوتها اتهام صارخ وواضح، كما لاحظت من التعبير الذي ارتسم على وجهه.

وساد صمت مطبق. مرّ دهر قبل أن يجيبها، وخيّل إليها أنّ وجهه شحب كلياً: «الآن، أصبحت أنتِ من يطرح الأسئلة».

شعرت بما سيكون عليه ردّه، فقررت ألاّ تسهّل عليه الأمور. قالت: «كما ذكرت منذ لحظة، الاعتراف يريح النفس. لكن الدعوة إلى اتباع هذه المفهوم أسهل من تطبيقه».

كان صوته بارداً، متباعداً حين أجاب، ما أظهر أنّ المسار الذي اتخذه الحديث لا يعجبه: «لا يمكنني أن أتكلم بثقة مطلقة، لكني أستطيع أن أقول إنّ أمي كانت المرأة الوحيدة في حياة أبي على حدّ علمي. وحتى بعد وفاتها، لم أرَ ما يدل على أن ثمة امرأة أخرى في حياته. إنما الشخص الوحيد الذي يمكن أن أتكلم عنه بثقة تامة هو أنا نفسي. وأنا لم أخن زوجتي».

عصفت الكلمات في دماغها، فلم تفهمها على الفور. وبدلاً من أن تشعر بالارتياح بعد سماعها، أحست بألم مرير يعتريها. فإذا لم يخن زوجته، ولسبب ما لم تشك للحظة في كلامه، فإنها هي، آبي جارفيه، التي تعرّضت للخيانة. ولهذا السبب، لن تغفر له أبداً.

أبداً! راحت تحدّق إلى الفراغ، فاقدة الإحساس بما حولها، وقد

www.alromancia.com

أدركت أنّ هذا القرار، الذي يخالف أحلامها وآمالها ورغباتها كلها، أوصلها إلى الحضيض. لقد أوصلها إلى أدنى نقطة في الحياة، حيث لن تتمكن أبداً من الصعود والوصول إلى الضوء، كما لن تتمكن أبداً من التحرر.

لكن، وقبل أن يتمكّن أيّ منهما من الكلام، سمعا طرقاً خفيفاً على الباب، وحين فُتح، ظهرت جورجيا التي وقفت عند العتبة. بدت الشابة التي تهتم بكاتي قلقة، فتقدّم منها زاك، وقد بدا القلق على وجهه.

ـ جورجيا؟

ـ آسفة يا زاك، لكن كاتي تبدو متعبة وقد ارتفعت حرارتها قليلاً. لا أريد أن أتصل بالطبيب ما لم يكن الأمر ضرورياً، إنما هلاّ صعدت لرؤيتها.

ـ اتصلي بالطبيب الآن يا جورجيا. أعلميه فقط أننا قد نحتاجه.

كان قد بدأ يصعد السلالم ركضاً حين التفت وقال: «آبي، من الأفضل أن تخلدي إلى النوم، فقد تكون ليلتنا طويلة».

واختفى.

خطر لآبي وهي تصعد إلى غرفتها أنّ القدر تدخّل على الأرجح، بالنيابة عنها هذه المرّة. إن ارتفاع حرارة كاتي المسكينة أنقذها قبل أن تتصرف بحماقة كليّاً. ولن تكون هذه هي المرّة الأولى التي تتصرف فيها بحماقة وسخف.

* * *

٧ ـ نزوة رجل ثري

في الصباح، استفاقت آبي ببطء، قلقة على كاتي، وحاولت أن تنسى أنّ الليلة ليلة الميلاد. لكن ما أن واجهت هذه الحقيقة حتى قررت أن تنفذ ما خططت له، فتتصل بمطار لوغان وتحجز مقعداً على أول طائرة ستقلع منه، مهما كانت وجهتها. وإذا كانت كاتي مريضة، فآخر ما يحتاجه المنزل هو ضيفة.

استجمعت شجاعتها كلها لتقوم من سريرها الدافىء وتتوجّه إلى الحمام. بعدئذ، ارتدت ثيابها بسرعة ونزلت إلى الطابق السفلي فيما كانت كاتيا منشغلة بتنظيف المدافىء، وهي تأمل الا يكون زاك مستيقظاً. اتجهت إلى الغرفة الصغيرة حيث يمكنها أن تجري اتصالها في سكون، لكن، وقبل أن تبدأ بطلب الأرقام، انفتح الباب ودخل زاك ثم توقّف وقد فاجأه وجودها في الغرفة.

ـ آبي، لم أكن أعلم أنك مستيقظة.

ـ صباح الخير.

لن تدعه يرى تأثير ظهوره المفاجىء وغير المتوقّع عليها، لكن تلك النظرة الأولى السريعة جعلتها تلاحظ اضطرابه النسبي، وهذا بالطبع طبيعي.

ـ كيف الحال هذا الصباح؟

ورفعت رأسها لتنظر إليه، فأحست بشيء من الخشية: «آه..

www.elromancia.com

أرجو أن تكون كاتي بخير».

ـ إنها نائمة الآن، لكن ليلتها كانت مضطربة.

شعرت بالذنب لأنها لم تفكر سوى بنفسها، فسألته: «هل... هل أبقتك مستيقظاً؟».

ـ نعم. بقيت في غرفتها. كانت جورجيا مرهقة. على أيّ حال، ما كنت لأنام حتى وإن ذهبت إلى الفراش.

ـ هل حضر الطبيب؟

ـ نعم. رأيت أنّ من الأفضل أن يأتي. لكني سأتصل به الآن وأطمئنه إلى أنها نامت.

ـ هل قال ما الخطب؟

ـ إنها حالة وراثية نأمل أن تتخلص منها مع تقدّمها في السن. لكننا نهلع كلما ارتفعت حرارتها.

وابتسم من دون مرح ثم أردف: «إنه رد فعل الأهل، على ما يبدو».

ـ أتريد استعمال الهاتف الآن؟

ـ لا، اتصلي أنت يا أبي. فيمكنني أن أجري اتصالي من الطابق العلوي.

واستدار ليخرج ثم التفت إليها وسألها: «أيمكنني أن أساعدك؟».

ارتاحت حين طرح هذا السؤال، إذ ستتمكن من إطلاعه على ما تنوي فعله. فقالت: «أريد أن أتصل لأعرف مواعيد الرحلات».

وأملت ألا تبدو فظّة بكلامها هذا.

ـ حسناً.

وأغلق الباب بعد أن كان قد فتحه ثم اتجه نحوها وسألها: «ألا تزالين مصممة على الرحيل؟».

تملّكها الاضطراب، فهي غير مستعدة للدخول في نقاش يمكن أن يتحوّل بسهولة إلى الانفعال. وحاولت أن تبدو هادئة، فاكتشافه لمدى اضطرابها سيكون قاضياً بالنسبة إليها.

ـ أنا آسفة لمرض كاتي وأرجو أن تستعيد عافيتها قريباً. لكن، نظراً للظروف، لا بد أنّ آخر ما تتمناه هو وجود ضيف في بيتك، و...

ـ أظن أنني أفضل من يقرر ما أريده في بيتي، أليس كذلك؟

ـ ... كما أنني شرحت لك خططي. ظننت أني سأعود إلى موطني ما أن أكمل مهمتي.

كانت العينان اللتان تحدقان إلى عينيها داكنتين كالليل في الغرفة المعتمة، وقال: «إذن، أنت نادمة على قدومك، أهذا ما عنيته بكلامك؟».

ـ هذا ليس ما عنيته، وإن كنت... ما زلت لا أرى الهدف من كل هذا. هذه المخططات الشبيهة بأفلام جايمس بوند، وذاك المغلف. لا يمكنني بكل بساطة أن أفهم..

ـ أنت محقة.

ابتسامته العريضة لم تكن متوقعة، فأسعدت قلبها وذكّرتها بضحكاتهما في الماضي. ووجدت نفسها تبتسم بدورها.

ـ كانت فكرة مجنونة ولا عذر لديّ، لكن من الممتع أن يتصرف المرء بشكل غير منطقي أحياناً. أما في ما يخصّ ما قلته منذ قليل عن أنك ضيفة، وعلينا أن نهتم بك، فأعتقد أنّ العكس أقرب إلى الصحة. فجورجيا ستكون الاشبينة في زفاف أختها، وستبدأ عطلتها بعد ظهر اليوم، ومن المستحيل أن أخيّب أملها. لذا، ستكونين مكسباً عظيماً لنا إذا ما وافقت على قراءة القصص واللعب قليلاً. فأظن أنّ كاتي ستجلس بعد الفطور في سريرها، لتبدأ طلباتها وتستفيد من الوضع.

كان العرض مغرياً، ولا فائدة من اقناع نفسها بالعكس، وإنما . . . ألم تقسم الليلة الماضية على ألاّ تغفر له أبداً؟ كيف استسلمت بهذه السهولة؟ قالت بتنازل تطلّب منها جهداً: «بالرغم من كل هذا، فإن معرفة الوضع الحقيقي لن تكون فكرة سيئة. أنا واثقة من أن الحجز في الرحلات بعد العطلة سيكون أصعب».

ـ هل تريدين أن أسأل بالنيابة عنك؟

سؤاله المستسلم أثار فيها الندم، وسلّمته الهاتف عندما مدّ يده نحوها. جلست هادئة، بائسة، تستمع إليه وهو يسأل، ويسجّل المواعيد، ويضغط على محدّثه ليحصل على التفاصيل.

أن تلعب المرأة دور الصعبة المنال شيء، وأن تُحارب وتُقتل بسلاحها نفسه شيء آخر.

أعلن أخيراً بعد أن وضع السماعة: «ثمة مقعد على الرحلة التي ستقلع بعد ظهر اليوم. ستصل إلى لندن في الساعات الأولى ليوم الميلاد، وهو توقيت ممتاز للوصول إلى أيّ مكان».

ثم أضاف بتهكّم لا داع له برأيها: «خاصة إذا أردت العثور على رحلة للانضمام إلى زوج أمك. إذن، ماذا ستفعلين يا آبي؟ أو لعلك تفضّلين أن تفكّري في الأمر فيما أتصل بالطبيب؟ آه، أظنك ستجدين الفطور جاهزاً الآن، وسأوافيك في الحال».

جلست آبي إلى الطاولة، تفرش محرمتها وتبدأ بالأكل وهي تغلي غضباً بسبب زاك ماغواير الذي وضعها في هذا الموقف المحرج.

واستاءت أكثر من نفسها لأنها سمحت له بذلك. لم تكن في العادة مترددة، لكن هذا الرجل. . هذا الرجل من بوسطن. . . لطالما سمعت أنّ أهالي بوسطن أصحاب عزم وتصميم، ولعلهم عنيدون قليلاً، وهذا هو سرّ نجاح هذه المدينة الحيوية. لكن هذا لا يعطيه الحق في التحكّم

في حياتها.

وانفتح الباب. كانت تهم بصبّ القهوة في فنجانها فرفعت رأسها بجهد ونظرت إليه فيما جلس قبالتها.

سألته: «ماذا قال الطبيب؟».

ـ يجب أن تبقى في الفراش حتى هذا المساء، وإذا لم تحصل أيّ مضاعفات فيمكنها مغادرته. إذا حالفنا الحظ فستعود إلى طبيعتها غداً. قد تعتقدين أننا نبالغ في ردود فعلنا، لكننا نقلناها في صغرها إلى المستشفى مراراً وهي تعاني من صعوبة في التنفس، لذا. . أفترض أني أبالغ في حمايتها، لكن إن رأيت يوماً طفلاً يكافح ليتنفّس، فلن تنسي المنظر بسهولة.

ـ لا، أتصور ذلك.

لم تكن تدرك مدى خطورة الوضع، فعادت تسأله: «لكنك تعتقد أنها قد تتغلب على المرض، أليس كذلك؟».

ـ إنها من الحالات التي تشفى غالباً مع الوقت. إنما علينا أن نكون حذرين في هذه الأثناء.

وصبّ زاك فنجان قهوة، ثم اتكأ على الطاولة وسألها: «حسناً، هل اتخذت قرارك يا آبي؟ أستمضين عيد الميلاد في بوسطن؟ أم في مطار هيثرو؟».

أسلوبه في الكلام، جعلها تشعر بأن القرار اتُخذ بالنيابة عنها، فردّت: «أعتقد أني أفضّل أن استقل الطائرة التي ذكرتها».

وما أن تكلّمت حتى أدركت أنّ قرارها هو القرار الخاطىء. فآخر ما تريده الآن، وفي هذه اللحظة، هو الانفصال عن زاك ماغواير. وهي لم تندم على هذا اللقاء رغم كل الألم الذي تسبب لها به، في الواقع. . .

وبشيء من العصبية، أرجع زاك كرسيه وتوجّه إلى الباب قائلاً: «في هذه الحالة، من الأفضل أن أتصل بالشركة على الفور. فهذه المقاعد تخطف عادة، ما أن تديري ظهرك».

عندما أغلق الباب خلفه، اضطرت آبي إلى مقاومة دموعها التي هددت بالانهمار، ولم تنجح في السيطرة عليها إلاّ حين دخلت كاتيا لترفع الأطباق المتسخة.

حاولت آبي أن تبتسم وأن تتكلم بشكل طبيعي: «ماذا ستفعلين يوم الميلاد يا كاتيا؟ هل تحتفلين ليلة الميلاد؟».

ـ نعم، سنغادر أنا وأمي بعد ظهر اليوم ولن نعود قبل السادس والعشرين مساءً. السيد ماغواير لطيف للغاية، وهو يعلم أننا نرغب في مشاركة بعض المواطنين البولنديين بالاحتفال. لكن الآن عليّ أن أسرع.

واختفت تاركة آبي تتساءل كيف سيمضي زاك وكايت الميلاد، وحيدين في هذا المنزل الكبير، من دون أقارب أو أصدقاء.

وفجأة، انفتح الباب وعاد إلى الغرفة. كان وجهه خالياً من أيّ تعبير، لكن تنهيدته الصغيرة فسّرت ما يقوله: «فات الأوان، أخشى أنّ المقعد قد حُجز، لكن. . .».

لم تبذل أيّ جهد لإخفاء تهكّمها وهي تقول: «ولمَ لم تفاجئني هذه الأخبار؟».

ـ . . . إذا أردت. . .

راحت تقاوم هذه السيطرة وهذا التلاعب الواضحين. ولم تكن حاضرة للكفاح بهدوء: «أجد صعوبة في أن أصدّق أنّ المقعد لم يعد متوفراً في غضون دقائق. . .».

وبدا انزعاجها واضحاً حين أضافت: «أعتقد أنك اتخذت قرارك

من قبل، من دون أن تأخذ ما أريده بعين الاعتبار. قررت أنني سأبقى. . .».

ـ هلاّ سمحت لي بإنهاء كلامي؟

بدا نافد الصبر، بارداً، كما لو أنه يتعامل مع موظّف غير كفوء: «اقترحوا أن تسافري إلى نيويورك، لتستقلي طائرة الكونكورد بعد الظهر، فتصلين إلى انكلترا في وقت قياسي».

ـ الكونكورد؟ لكن الرحلة مكلفة للغاية، ولا يمكنني. . .

ـ بالله عليك يا آبي؟

مرر يده في شعره، وكافح دقائق ليسيطر على تعابير وجهه ثم تقدّم ليقف قبالتها. مدّ يده وأوقفها على قدميها، وهو يردد اسمها بشيء من التأنيب فيما ارتفعت العينان الكهرمانيتان لتنظرا إليه. هزّ اليدين اللتين ما زال يمسك بهما بلطف وقال: «تعلمين أنك لن تضطري لدفع ثمن التذكرة، فقد جئت إلى هنا في عمل، ولن تفلس الشركة بسبب هذه التذكرة، لذا. . . القرار قرارك. أما في ما يتعلق بشكوكك حول المقعد الثاني، فيمكنك أن تتصلي شخصياً لتتأكدي. . . استخدمي الهاتف أو يمكنني أن أقلّك إلى مكتب سفر».

ـ لكن. . .

بقيت تتردد، فقال بشيء من الملل: «نعم، أعلم. أنت متلهّفة للانضمام إلى ذاك الرجل الذي تخلّى عنك بقساوة والذي ترفضين حمل اسمه. لم تفسّري لي بعد لما فعلت هذا، كما لم أسألك عن ردّ فعله على التغيير. هل صدمته؟ هل خيّبت أمله؟ لا أظنه شعر بالإطراء».

ـ أفترض أنني خيّبت أمله، وفاجأته. لكنه لم يناقش المسألة إذا ما أردت أن تعرف الحقيقة.

كان زاك لا يزال يمسك بيديها. لذا، بدا من المناسب أن تلقي

اللوم لضعفها على هذا الأمر.

ـ حسناً، أتريدين أن أحجز لك للسفر يا آبي؟

توقّف عن الكلام، وقد لاحظ ترددها، وقرر أن يهاجم، فأخفض صوته وهمس: «تعلمين أنك ستؤدين لي خدمة كبيرة، أليس كذلك؟ ما من أحد من الموظفين في المنزل، وأعلم أنّ كاتي ستفرح لبقائك. لقد دعينا إلى منزل أحد الأصدقاء، لكننا قررنا عدم تلبية الدعوة، أنا. . . نحن. . . كايت وأنا. . . حسناً، سيسرّنا أن تمضي الميلاد معنا يا آبي».

قالت بضعف، وهي تعلم أنها تنصاع لرغباتها هي أكثر مما تنصاع لرغباته: «لا أستطيع. حتى أني لم أشترِ أيّ هدايا. . لك أو لكاتي».

ـ ما من مشكلة. المحال مفتوحة ويمكننا ايصالك إلى المدينة. . . طالما أنك تعلمين أنني أريدك أنتِ وليس الهدايا، وإذا ما وعدتني بألاّ تنفقي الكثير من المال علينا.

ـ الحدّ الأقصى هو خمس دولارات.

تكلّمت بمرح وارتياح، من دون أن تدرك أنّ ابتسامتها المذهلة تركت أثراً عميقاً فيه، وجعلته يفقد السيطرة على نفسه.

ـ باركك الله. وبعد الميلاد، أعدك بأن تعودي إلى انكلترا حين تقررين الرحيل.

فقالت بصوت مرتجف: «إذا ما سمحت حركة الطيران بذلك، أليس كذلك؟».

ـ طبعاً، إذا ما سمحت حركة الطيران والطقس بذلك. لكنك تعلمين أنّ الأمر لا يتطلب سوى تساقط الثلج لليلة واحدة. إنما، الآن أظنك تريدين الذهاب إلى السوق.

ـ نعم.

تملّكها شعور بالإثارة لأنها ستمضي بعض الوقت وحدها في بوسطن، وربما قد تسنح لها الفرصة لتفكّر في الأحداث الأخيرة.

ـ لكن قبل أن أذهب يا زاك، هل أستطيع رؤية كاتي لأطمئن عليها؟ لم أدرك مدى قلقك الليلة الماضية. هل تظن أنّ اليوم الذي قضيناه في التزلّج أتعبها؟

ـ أظن أنّ الأمر كله لا يتعدّى الإثارة المفرطة. . . فقد لعبت على هواها طوال اليوم، ثم قابلت العديد من الناس في المساء. لكن، وكما قلت لك، نحن نميل إلى الإصابة بالهلع بسبب تجارب الماضي. والآن. . . بالنسبة إلى رحلة التسوّق، سأطلب تجهيز السيارة بعد نصف ساعة، فهل هذا يناسبك؟

وهكذا، وبعد ساعة، وجدت آبي نفسها في شارع نيوبري، حيث أنزلها السائق ووعدها بالعودة بعد ساعتين. انضمت إلى حشود المتسوّقين، فاشترت من متجر مشهور عالمياً أوشحة حريرية لكل من جورجيا وكاتيا، وطلبت لفّها بورق مميّز.

ترددت أمام متجر للعطور، لكنها قررت ألا تقدّم لزاك هدية شخصية جداً كالعطر. فمهما كانت علاقتهما حميمة في ما مضى، إلاّ أنها من الماضي، ولن تجعله يعتقد أنها قد أينعت مجدداً وحان أوان قطافها. لذا، ما أن رأت مجلّداً مصوراً، يحتوي على مناظر تخطف الأنفاس من النورماندي في إحدى المكتبات، حتى اختارته، إذ وجدته لا يقاوم رغم ثمنه الباهظ. فهذه هي الهدية التي تتمنى أن تتلقاها هي نفسها. واختارت له أيضاً شريط تسجيل لكونشيرتو فيولونسيل. ولم تدرك إلاّ لاحقاً، وهي في السيارة في طريق عودتها إلى المنزل، أنّ الهديتين اللتين اختارتهما له، خيار غريب إذا ما أرادت أن تفصل بينها وبين علاقتها السابقة بزاك. فقد بدتا وكأنهما تشيران إلى هذه العلاقة

تحديداً.

قبل ذلك، أمضت معظم وقتها في متجر صغير مذهل، وجدت فيه كافة الأغراض الصغيرة الضرورية لتأثيث منزل دمية، وبما أنها كانت تعلم أنّ هذا هو مطلب كاتي الرئيسي، سرّها أن تجد المكان المناسب. وقد عاشت تجربة رائعة وهي تختار العديد من القطع الصغيرة المتنوعة التي جعلتها تبتسم.

عندما وصلت إلى المنزل، علمت أنّ زاك استدعي إلى المكتب، لكنه سيعود بعد الظهر. وبدت كاتي، في عينيّ آبي التي تفتقر إلى خبرة، في صحة جيدة. كانت حرارتها لا تزال مرتفعة قليلاً بحسب جورجيا، وقد اتصل الطبيب وقال إن حالتها شائعة بين الأطفال، حيث ترتفع الحرارة من دون سبب ظاهر ومنطقي لتعود وتنخفض بسرعة.

شعرت آبي أنّ جورجيا خائفة من أن تلغى خططها فسعت إلى طمأنتها: «حسناً، يمكنك أن تذهبي الآن يا جورجيا. لا داعي للبقاء، فسأرعى كاتي بنفسي».

ـ ربما من الأفضل أن أتصل بالسيد ماغواير وأعلمه بالأمر؟

ـ نعم، افعلي يا جورجيا.

ثم التفتت إلى الطفلة وسألتها: «ما رأيك في أن نتناول طعام الغداء هنا؟ ويمكنك لاحقاً أن تستحمي وترتدي ملابسك».

وهكذا مرّ الوقت بعد الظهر. فقد تناولا حساء دجاج لذيذاً، ثم قرأت آبي قصة من كتاب فيما كاتي تنتظر أيّ خطأ منها لتصححه. بعدئذ، عملتا على تركيب صورة، وحين وضعت آبي القطعة الأخيرة، تنهّدت وهي تدرك أنّ ضغط الأيام الماضية قد أرهقها.

ـ والآن، ماذا سنفعل يا آبي؟

ـ ما رأيك بحمام ساخن قبل أن ترتدي ثيابك؟

انسلّت كاتي تحت الأغطية التماساً للدفء، وقالت: «ما رأيك لو تقرأين لي قصة أخيرة؟».

كانت قادرة على التلاعب بها كما يفعل والدها، هذا ما خطر لآبي وهي تمدّ يدها لتأخذ الكتاب. وما أن قرأت بعض السطور حتى بدأ جفنا كاتي يطبقان. وبعد لحظة، أخذ صوتها يخفت تدريجياً، وراح رأسها ينحني من النعاس. وحده صوت الباب جعلها تستيقظ لاحقاً مجفلة.

ـ مرحباً.

تكلّم زاك بصوت خافت ناعم مع دخوله الغرفة، ومدّ يده يلامس جبهة كاتي الباردة.

ـ إنها في حال أفضل. عندما تستفيق يمكنها أن تنزل إلى الطابق السفلي. لا داعي للبقاء قربها يا آبي، فلدينا جهاز في غرفتها سيعلمنا عند استيقاظها.

وقفت آبي وتمطّت.

ـ حسناً. أنت تعلم أنّ الكل قد غادر، أليس كذلك؟

ثمة شيء شخصي وحميم في هذه الغرفة المعتمة، وفي صوتيهما الخافتين، وفي وقوفهما قريبين من بعضهما البعض إلى جانب سرير الطفلة.

ـ نعم، اتصلت بي كل من كاتيا وجورجيا، وقلت لهما إن بإمكانهما المغادرة ما أن تتمكّنا من ذلك. ففريق العمل يبذل جهده ويستحق العطلة.

ساروا نحو الباب، وكان هو يسدّ عليها طريقها، ولا يمكنها أن تمرّ من دون أن تمسّه. قال لها: «باركك الله يا آبي لأنك بقيت مع كاتي. أنا... أنا ممتن لك».

ومن دون أن يلمسها أو تلمسه، بدا وكأنّ شرارة انتشرت بينهما كالنار في الهشيم. شعرت بأن جلدها قد اشتعل، وأنّ كل خلية من خلاياها العصبية تتجاوب مع الجاذبية المحيطة بها، وأن قلبها يتخبّط بين ضلوعها. وفيما كافحت لتستعيد هدوءها، امتدت يده لترفع خصلة من شعرها غطت عينيها. وتكلم مجدداً، فجاء صوته بطيئاً، أكثر نعومة وبطئاً من قبل: «لكنك تعلمين أني لم أطلب منك الحضور لهذا السبب...».

بالطبع تعلم. وأعادتها كلماته من أحلامها السخيفة إلى العالم القاسي الفظ حيث يسود الواقع. وبالرغم من طعنة الألم، تمكّنت من أن تردّ بسخرية خفيفة أسعدتها: «أدرك هذا يا زاك، وأوهامي قليلة. وبالرغم من أنك تتجنّب دوماً الرد، إلاّ أنني أعلم أنني جئت بسبب نزوة».

ـ إنها أكثر من نزوة يا آبي.

كانت يده قد نزلت عن جبهتها، لتلامس خدها بحركة أثّرت فيها تأثيراً عميقاً.

ـ نزوة رجل ثري.

وكبحت رعدة انتابتها، وحدّقت إليه بعينين متهمتين، صافيتين كحجر كريم.

ـ سألتك لما أتيت يا آبي. فأنت لست من النوع الذي يهبّ لاشباع نزوة رجل، حتى وإن كان غنياً، لذا لما...؟

وحين رأى وجنتيها تصطبغان، ضحك ضحكة انتصار ناعمة وهزّ رأسه ثم أردف: «لكن أرى أنك تفوّقت عليّ يا آبي، فهل أجيب عنا نحن الاثنين؟».

ومدّ يده وجذبها إليه ليحبسها قربه، وتابع يقول: «لقد احتلت

عليك لتأتي إلى هنا وسمحت أنت بذلك. نعم. نعم فعلت».

وابتسم عندما حاولت الإنكار ووضع إصبعه على فمها يسكتها: «لماذا؟ لأننا ما أن رأينا بعضنا البعض، حتى انطبع أحدنا في ذهن الآخر ولم يعد قادراً على إخراجه منه، واعتقد أنّ ردّ فعلك كان مماثلاً. ولا داعي لأن تهزّي رأسك بهذه الطريقة، إلاّ إذا استطعت اعطائي تفسيراً منطقياً».

ـ لقد جئت...

عندما يكونان قريبين من بعضهما البعض هكذا، فتسمع كل نفس يتنفسه وكل نبضة من نبضات قلبه، يصعب عليها أن تفكر بوضوح.

ـ أفترض أنّ دافعي كان الفضول. أفترض أنّ كل واحد منا يتساءل كيف أصبحت حياة من... عرفهم في الماضي.

ـ هل هذا ما أمثّله بالنسبة لك؟

كان صوته قاسياً بعض الشيء، لكن ذراعيه اللتين احتضنتاها بقيتا حنونتين كعهدها بهما، وأضاف: «شخص عرفته في الماضي؟ هذا ليس ما ظنّه زوج أمك حين وصل ذاك اليوم على غفلة».

ـ لن أتحدّث في الموضوع مجدداً.

ـ مجدداً؟ لكننا لم نناقشه أبداً، أليس كذلك؟ فقد اتهمني بإغواء فتاة شابة، والإساءة إلى سمعتها، وأنت اكتفيت بالابتعاد عني.

ـ شعرت أني ممزقة بينكما، وكان هذا جلياً بما يكفي. لم أكن سعيدة لأني علمت أنك ستسافر إلى ميلانو في الصباح التالي.

بدأت الأمور تصبح مشحونة جداً. أجبرت نفسها على التوقّف عن الكلام، وأخذت نفساً عميقاً قبل أن تتابع بصوت أكثر هدوءاً: «كما أنك وعدتني بالعودة... عندئذ، كانت ستتاح لنا فرصة مناقشة المسألة. لكنك لم تفعل، أليس كذلك؟».

www.elromancia.com

ورمقته بنظرة عاصفة متهمة وصرخت: «لم تعد».

هذه الفكرة كانت أشبه بسكين يغرز في قلبها.

ـ لا، لم أفعل، لم أستطع.

وصمت للحظة فيما راحت ذكرياته تعذّبه وتثير ندمه: «لكني أرسلت لك رسالة».

لم تكن مهتمة بالرسائل أو الأعذار أو أيّ شيء آخر: «وعدتني بالعودة. على أيّ حال، لقد قضي الأمر وانتهى».

وابتعدت عنه بشكل مفاجيء وفظ واتجهت إلى الباب المفتوح، ثم التفتت فجأة ورمقته بنظرة قبل أن تقول: «كنا نتحدث عن سبب مجيئي إلى هنا بمجرد أن أشرت بإصبعك».

ـ جئت للسبب نفسه الذي جعلني أشير بإصبعي. أردتك، حتى بعد كل ما حصل، أردتك إلى حدّ يسبب الألم، و. . . وأعتقد أنك جئت لأنّ شعورك مماثل، ولن يقنعني أيّ شيء بالعكس.

ردّت بحرارة، منكرة المشاعر والانفعالات الفيّاضة التي أثارتها كلماته: «لا، لا».

ـ أنت تخدعين نفسك يا آبي. لو لم تكوني مهتمة لبقيت في بيتك في لندن، أو لسافرت إلى تينريف.

ـ قلت لك من قبل إني جئت لأنني ظننت الأمر مهماً للشركة، ولأني، نعم، أعترف بذلك، لأني شعرت بالفضول. لكن، إذا ظننت للحظة واحدة أني جئت لنستأنف ما انقطع، فأنت مخطيء جداً. لا تنسَ أني علمت قبل أن أغادر لندن، أنّ لديك زوجة وعائلة، وهذا بحدّ ذاته كافٍ لإلغاء هذه الفكرة.

ـ كنت أظن أنك لا تعترضين على الرجال المتزوّجين.

لاحقاً، ندم زاك على كلامه القاسي هذا، لا سيّما وأنه لم يعد

يصدّق كلام جيسيكا هيرون.

ساد صمت مطبق مثقل فيما استوعبت آبي كلماته، فشحب وجهها. أراد أن يتقدّم منها، ويأخذها بين ذراعيه ليطمئنها كما يفعل مع كاتي إذا ما شعرت بألم، لكن، وقبل أن يتمكّن من التحرّك، تكلّمت مجدداً: «إذا كان هذا رأيك بي. . . استناداً إلى تجربتي الخاصة، الرجال هم من ينسون زوجاتهم، وهذا أمر شائع على ما أعتقد».

نظرتها كانت تدعوه لتذكّر حبهما في فرنسا. ذاك اليوم، أكد لها أنه لم يكن متزوجاً حينذاك، لكن الناس نادراً ما يكونون صادقين كلياً في هذه المسائل. لم تعد تريد شيئاً بقدر ما أرادت أن تضع حداً لهذا الموقف، فقد أصبحت أعصابها مشدودة إلى أقصى حد. قالت بقدر ما استطاعت من هدوء: «لا أريد التحدّث في هذا الموضوع أكثر. إننا عالقان معاً حتى أتمكّن من السفر، لذا، ومن أجل كاتي، هلاّ تصرّفنا بشكل لائق خلال الميلاد؟ عاملني كشخص غريب، فهذا ما أنا عليه. وفي ما يتعلق بي، فاعلم أنني اعتبر ما حصل في النورماندي وكأنه لم يحصل أبداً».

* * *

٨ ـ صوته يعانق روحها

لقد كذبت عليه، لكن الأصعب هو أن تكذب على نفسها وأن تقنع نفسها بأنّ ما حصل في النورماندي لم يحصل أبداً. هذا مستحيل! في الواقع، بدأت تغفر له، جزئياً وليس كلياً. لكنه... أرادها بشدة. من هي المرأة التي لن تنخدع وتفتن عندما يصرّح بهذا الكلام رجل كزاكاري ماغواير؟ لكن... هناك... كان هناك... زوجته... وكاتي. لكن....

أرادها إلى حدّ يشعره بالألم! عندما تذكّرت كلماته هذه تراقصت الدماء في عروقها طرباً. لكنها أنكرت مشاعرها، وصممت على صدّ مشاعرها التي تعذّبها، وألمها أيضاً.

ـ طلب خاص يا آبي.

كانت تمسح دمعة إشفاق على الذات انهمرت على خدها، وقد سئمت من نفسها ومن زاك، حين دخل إلى المطبخ فجأة ليجدها تحضّر الشاي.

ـ نعم؟

لم تستطع أن تبتسم بسهولة فتقدّم نحوها بحذر، وكأنها قد تغضب أو تنشب أظافرها في وجهه، ثم وضع إصبعه على خدها الرطب وقال بصوت خافت، قلق: «آبي، سامحيني. أعلم أني أثرت استياءك وهذا آخر ما أريده في الدنيا، أردت...».

ـ بالطبع لم تفعل شيئاً.

باستثناء أنك حطّمت فؤادي.

ـ في الواقع، أنا... أصبح عاطفية في فترة الميلاد و... لا أنفكّ أفكر في الماضي. الأمر سخيف فعلاً...

والآن، بعد أن سيطرت نسبياً على مشاعرها، أصبحت ابتسامتها أكثر اقناعاً.

ـ هل أنت واثقة من أنّ هذا كل ما في الأمر؟

ـ تماماً.

ـ هل ما زلت تأملين أن تجدي بساط الريح السحري ليحملك إلى الطقس المشمس وإلى... عائلتك؟

ـ بالطبع لا! إنه الحنين ليس إلاّ، وهذا أمر شائع في هذا الوقت من العام.

ـ نعم، كلنا نعاني منه من حين إلى آخر.

وصمت قبل أن يغيّر مجرى الحديث: «والآن، إليك طلب سيبعد كل هذه الأمور عن ذهنك. رفضت ابنتي أن تسمح لي بمراقبة حمامها وتقول إنها لن تقبل أحداً سوى آبي».

احمرّت وجنتاها سروراً وسألته: «هل فعلت؟ هل طلبتني أنا؟».

ـ أظن أنه لا ينبغي أن تهنئي نفسك الآن. حاولت أن أجعلها تبدّل رأيها، بسبب قلقي عليك. لكنها عنيدة حين تريد ذلك، وأنا لا أريدها أن تبللك.

تكلّمت آبي ببطء وكأنها تفكّر في المسألة: «عنيدة؟ أتساءل من أين ورثت هذه الميزة؟».

ـ نعم... حسناً.

وللحظة، بدا مرتبكاً، لكنه استطاع أن يسخر من نفسه.

كانت آبي قد حضّرت فنجانين من الشاي فقدّمت له أحدهما، وقالت: «حين أنهي فنجاني، سأصعد إلى الأعلى. هل سترتدي ثيابها بعد الحمام أم تكتفي بثياب النوم؟».

ـ لا فائدة من طرح السؤال عليّ. كما قلت لك، ستطلعك هي على ما تريده بالضبط.

واكتشفت آبي أنّ هذه هي الحقيقة حرفياً. فبالنسبة لفتاة صغيرة، كانت كاتي تميل إلى السيطرة. وهذه النزعة لديها مسلّية أكثر مما هي مزعجة، وقد ورّطت آبي في معركة بحرية بين عائلتين من البط، تركتها مبتلّة بقدر كايت.

ـ أخرجي! في هذه اللحظة، أخرجي!

كانت تتكلم بحزم مرح حين انفتح باب الحمام وأطلّ زاك برأسه.

ـ من الأفضل أن تفعلي ما يطلب منك يا عزيزتي. تذكري أنّ بابا نويل بدأ جولته.

بعدئذ، رفعها وهزّها قليلاً ثم لفّها في منشفة دافئة وحملها إلى غرفة نومها.

وقفت آبي على عتبة الباب للحظة وقالت: «يمكن لوالدك أن يجففك فيما أنظف الفوضى هنا. لا أريد أن تلومني جورجيا عندما تعود».

عندما عادت للظهور مجدداً، متوهجة الخدين، مبتلة الشعر، ابتسمت له وسألته: «أتريدني أن أتولّى المهمة عنك يا زاك؟».

وازداد احمرارها إذ أحسّت بنظراته تتأملها، ثم تضاعف خجلها حين لاحظت في المرآة مظهرها المشعث.

قالت: «أظنني سأذهب لاحقاً إلى غرفتي لأستحم بدوري. لم أكن أعلم أنّ مساعدة طفل صغير على الاستحمام تعني أن أشعر وكأن موجة

عارمة ضربتني».

سألتها كاتي: «أليس لديك أولاد يا آبي؟».

صدمها سؤال الطفلة، كما صدمها وجود زاك عند طرف السرير يستمع ويراقب، لكنها أجابت: «لا، ليس لديّ أطفال».

ومن دون هدف، بدأت بالتقاط الملابس المرمية على الأرض.

وقف زاك قائلاً: «حسناً، سأترككما معاً».

بدا منطوياً على ذاته أكثر مما كان عليه قبل دقائق. وتردد عندما مرّ قرب آبي، فلجمت نفسها لئلا تلمسه، لكنه قال: «يمكنك أن ترتاحي قليلاً يا آبي. فأنا المسؤول عن العشاء الليلة. سأحضّر اللحم المشوي، إلاّ إذا كان أحدكما يفضّل الدجاج، فما رأيك يا آبي؟».

ـ اللحم المشوي لذيذ.

ـ ما رأيك يا كاتي؟

ـ هل أستطيع أن آكل الهمبرغر يا أبي؟ فلا أرغب في تناول اللحم المشوي.

ـ سنتناول العشاء عند السابعة والنصف، ولا نريد أن نتأخر. ستنزلين ما أن تصبحي جاهزة يا كاتي، فآبي تستحق بعض الراحة والهدوء بعد كل ما عانته.

وبالرغم من كل المشاحنات، اكتشفت آبي أنها تسلّت مع الطفلة، فقد ألهتها عن تلك المشادة مع زاك. ونظراً لعدم خبرتها، ولعدم اختلاطها بالأطفال، وجدت آبي كاتي مزيجاً مؤثراً من البراءة والحنكة. مرّ وقت طويل منذ انتابها مثل هذا الشعور، رغم أنها غير قادرة على تحديده وإعطائه اسم. لم تشعر به منذ كانت أمها بصحة جيدة.

ولاحقاً، حين جلست قبالة المرآة لتجفف شعرها، أدركت أنّ حيويتها تزداد ومزاجها يتحسّن، ما يتعارض مع الكلمات المؤلمة

والقاسية التي تبادلاها، ويختلف عما خططت له من تجرّد وبُعد. لذا، قررت الآن أن تتصرف وكأنها سعيدة بوجودها هنا. فتحت باب الخزانة وأسفت لأنها لم تحمل معها ثوباً أكثر ملاءمة للعيد. يبدو أنها ستضطر لاختيار الثوب الأحمر مجدداً، إلاّ إذا... لا، ليسا مناسبين لسهرة هادئة في المنزل. إنما، لمَ لا؟ لقد أحبّت السترة الحريرية الكهرمانية اللون مع السروال المقلّم بالخيوط الذهبية، ولا تعلم لما حملتهما معها من لندن! ربما ظنت أنها سترتديهما للذهاب إلى المسرح. لكن سيكون من المؤسف حقاً أن تعيدهما معها من دون أن ترتديهما... وهذه ليلة الميلاد.

كانت في حالة من العصبية الشديدة، ولا فائدة من إدّعاء العكس. لم تستطع أن تنسى ما قاله زاك عن... عن مشاعره. تحركت أصابعها على الأزرار الصغيرة تقفلها، ثم وضعت قرطيها، وعندما انتهت، شعرت بالإطمئنان والثقة... كان خيارها جيداً، متميّزاً إنما من دون مبالغة. هذه الكلمة الأخيرة جعلتها تضحك، وكأنما خيوط الذهب والكهرمان يمكن ألا تعتبر مبالغة. لكن سترتها وسروالها فضلاً عن الحذاء العالي الكعبين، أعطت دفعة لثقتها بنفسها.

شعرها أيضاً بدا مرتّباً بعد أن غسلته وسرّحته. كان يلمع في الضوء، وسرّها أن تراه يتطاير حول وجهها عند تحريك رأسها.

وضعت لمسة أخرى من ظلال العيون، وكانت قد اختارت اللونين الذهبي المعتّق والبرونزي، ثم وضعت أحمر شفاه لمّاع، ورشّة من عطرها المفضّل. وبعد أن نظرت إلى ساعتها، رأت أنه لم يعد بإمكانها أن ترجىء النزول أكثر.

أخذت نفساً عميقاً مهدئاً وخرجت. كانت تنزل السلم الأنيق في طريقها إلى البهو، حين رأته هناك. كانت يده على العمود المشغول

أسفل السلم، ورجله على الدرجة الأولى، كما لو أنه ينتظرها. وعندما وصلت إلى مستواه، توقّف قلباهما عن الخفقان للحظة طويلة فيما راحا يحدّقان إلى بعضهما البعض.

ـ آبي.

هذا كل ما قاله بصوت لامس روحها، فراح قلبها ينبض بسرعة فائقة ولمعت عيناها بالسرور لسماعها اسمها على شفتيه.

سمحت له أن يمسك بيدها وهو يقول بنبرة ناعمة، حميمة، مداعبة: «تعالي إلى المكتبة، فكاتي تشاهد فيلم فيديو، لذا نستطيع أن نجلس هادئين قليلاً قبل أن أبدأ الطهو».

بدت المكتبة بإضاءتها الخافتة وكأنها صورة عمّا يجب أن تكون عليه الحياة في هذا الوقت من السنة. ومن خلال النوافذ، رأت الشجرة المزيّنة بالأنوار، وصفاً من النباتات الخضراء، والشرائط الحمراء والذهبية، وبطاقات المعايدة، وناراً مضطرمة في المدفأة. كان هذا المشهد ليسليها في الماضي، لكن تلك المرحلة من السخرية تبخّرت، فهذه فترة الأمور الحسنة في الحياة، وعليها أن تقدّرها. وأحسّت بنفسها كما أحست بزاك، ما أفسح المجال أمام العواطف المدمّرة. وخيّل لها أنّ ما من امرأة تبقى غير متأثرة ولا مبالية في حضور رجل كهذا.

سروال أسود وقميص أبيض وربطة عنق، ثياب تقليدية... لكن كل ما فيه مميّز. كانت أزرار كميه من الذهب والعقيق اليماني، وساعته الناعمة من الذهب الباهت، لكنها علمت أن مظهره هذا لن يتغيّر حتى وإن ارتدى ثياباً عادية رخيصة. جلست ومدت ساقيها نحو النار، محاولة ألاّ تنظر إليه بهذا الشوق الخالص والجلي.

ـ شكراً لك.

أخذت الشراب الساخن الذي قدّمه لها وهي تبتسم، وسمحت لنفسها أن تتأمله وأن تبادله بعض النظرات الغامضة. ابتسمت مجدداً لنفسها وقد تدفّقت ذكريات الماضي لتشيع الدفء في جسمها.

جلس قبالتها، وأخرجها من عالمها الخاص الصغير ليعيدها إليه حين قال: «يسعدني بقاؤك يا آبي».

وراح يراقبها بانتباه وهو يرشف الشاي، ثم وضع فنجانه جانباً واستند إلى الخلف من دون أن تفارقها عيناه.

ردّت حالمة: «سرني البقاء».

ورشفت من فنجانها مجدداً، وهي تستمتع بالمشاعر المختلطة التي تسارع للظهور في داخلها. فقد عاشت لسنوات في عالم من العواطف المكبوتة التي بدا لها وكأنها عادت إلى الحياة مجدداً.

ساد الصمت للحظات طويلة، فشعرت وكأنها نسيت ما كانا يقولانه، فيما أخذ قلبها يتخبط في صدرها. وجدت صعوبة في تجنّب تينك العينين الرماديتين الصافيتين، اللامعتين في ضوء النار. بدا جدياً، وربما حنوناً، إلاّ أنّ من الجنون أن تسمح لأحلامها بالجموح من دون أيّ لجام.

ـ تسرّني تمضية الميلاد معك.

عندئذ، توقّف قلبها عن الخفقان ومن ثم تسارعت دقاته حين تناهت إلى مسامعهما أصوات من غرفة التلفزيون.

ـ ها قد بدأنا.

وكشر ثم أضاف: «فكّرت في أن نتناول العشاء هنا، أمام المدفأة، فهل تعجبك الفكرة؟».

ـ فكرة عظيمة.

في الواقع، ناسبتها الفكرة تماماً، بما أنها بدأت تشعر وكأنها

مخدّرة، خفيفة، تطفو في عالم من النعيم، بسبب حرارة النار والشراب الساخن. لا علاقة لهذا الشعور بـ. . .

ـ سأكون في المطبخ. أما زلت تحبين اللحم المشوي متوسط النضج؟

ـ نعم.

والتفتت إليه العينان الرائعتان وبدتا له مغرورقتين بالدموع، لكن ابتسامة الحنين التي ارتسمت على وجهها بددت هذا الانطباع.

ـ ما زلت تتذكر.

تكلّمت بصوت ناعم جداً، أجبره على الانحناء إلى الأمام ليسمع.

وكان صوته يرتجف قليلاً حين قال: «ستفاجئين. . .».

لن تعلم أبداً كم اشتاق لضمها بين ذراعيه، ولمداعبة شعرها الحريري. . . لكنه استقام وتابع: «. . . حين تعلمين كم أتذكر».

وصمت غير واثق مما سيقوله، لكنه تركها وأجمل الالحان الرومانسية تعزف على وتر عواطفها وأحاسيسها. استرخت في مقعدها، راضية تماماً، تنسج أحلاماً تعلم جيداً في سرّها أنها لن تتحقق أبداً.

واستفاقت من حلمها مع دخول كاتي إلى الغرفة. جذبت الفتاة الصغيرة مقعداً بلا ظهر وجلست مستندة إلى ساقيّ آبي. مرّت لحظات من دون أن تتكلم وكأنما ألسنة النار سحرتها، لكنها قالت أخيراً: «ما لا أستطيع أن أفهمه يا آبي. . . .».

ـ ماذا؟

ـ كيف ينزل بابا نويل من المدفأة في حين أنّ ناراً ضخمة تشتعل فيها؟ ألا يحترق؟ وماذا عن حيوانات الرنّة؟

أخذت آبي نفساً عميقاً قبل أن تجيب: «تعلمين أنه لا يأتي إلا بعد

منتصف الليل، بعد أن تنطفىء النيران، لذا لا يتعرّض لأيّ مشكلة. كما أنّ الأيائل تنتظره على السطح».

بدت الفتاة الصغيرة غير مقتنعة كلياً: «حسناً... لكنها نيران قوية. أتعلمين، لقد طلبت هدية ضخمة، ولا أرى كيف يمكنه أن ينزلها عبر المدفأة».

ـ تعلمين يا كاتي أننا نتحدث عن السحر، ولا يمكننا أن نفهم دوماً مثل هذه الأمور. إنما علينا أن نتقبّلها، فهذا ما يسمّى بالإيمان.

ـ أتعنين مثل بيتر بان؟ وهل تؤمنين بالجنيّات؟

ـ طبعاً. إذن، أنت تعرفين بيتر بان؟

دنت كاتي منها أكثر وقالت: «نعم. إنها إحدى قصصي المفضّلة. لقد قرأها لي أبي، كما شاهدت الفيلم على التلفزيون».

ـ أحببت هذه القصة أنا أيضاً حين كنت صغيرة. شاهدتها ذات مرّة في مسرح الدمى وأنا في مثل سنك. قد تتمكّنين من رؤيتها أنت أيضاً إذا ما سافرت إلى انكلترا.

ـ نعم، ويمكننا أنا وأبي أن نقيم عندك. سيكون الأمر مسلياً، أليس كذلك؟

ـ ما الذي سيكون مسلياً؟

كان زاك يقف عند عتبة الباب، يراقبهما منذ دقائق، من دون أن يتنبّها. وقد أثار المشهد ألماً عميقاً في صدره، فيما سلّط الضوء على ما ينقص في حياة كاتي. فعشرات الخدم اللطفاء لا يمكن أن يحلّوا محل الأم. في السنوات الأخيرة، عرف العديد من النساء اللواتي كن يرغبن في ملء هذا الدور، ولكم احتاج هو لامرأة في حياته أيضاً. لكن ليس أيّ امرأة، امرأة واحدة فقط.

هذه المرأة. نعم، هي. وعذّبته فكرة أنّ كبرياءه منعته من التقرّب

منها حتى الساعة.

ـ العشاء جاهز.

كان قد نسي سؤاله الأول، وراح يدفع أمامه عربة مثقلة بالأطباق. وزّع الأطباق فوجدت آبي نفسها تتأمل قطعة لحم ضخمة لن تتمكّن من إنهائها، كما أعاد زاك ملء كأسها بالعصير. رفع كأسه المملوء بالعصير نحو آبي، بحركة حميمة وساخرة، ورفع حاجبيه وكأنه يقول: كم نحن مجنونان!

بعد حين، استندت إلى الخلف في مقعدها، وهي تمسح فمها بمحرمتها. قالت: «الطعام لذيذ. لم أكن أدرك كم أنا جائعة، كما لم آكل يوماً لحماً طرياً كهذا».

بعدئذ، قُدّمت لهما الحلوى والقهوة ثم رفع الأطباق وحملها إلى المطبخ.

لم يتأخر في العودة، وألقى على ساعته نظرة ذات معنى ثم قال: «تجاوزت الساعة التاسعة والنصف، وفات موعد نومك يا كاتي».

ابتسم لابنته التي حاولت أن تعترض وكثرت احتجاجاتها، ورفعها بين ذراعيه قائلاً: «لقد أمضيت يوماً جميلاً، وعليك أن تنامي قبل أن يأتي بابا نويل».

ـ لست متعبة يا أبي.

ـ لكني متعب وكذلك آبي.

ـ إنما يا أبي...

ـ وغداً يوم حافل بالنسبة لنا جميعاً... سنفتح الهدايا.

ـ حسناً، إذا رضيت آبي بمرافقتي ووضعي في السرير...

ـ من الأفضل أن نسأل آبي، فنحن متعبان كما قلت لك.

ـ بالطبع، سأضعك في السرير. لكن عليك أن تسبقيني إلى الأعلى

وتبدئي بنزع ملابسك.

ـ لن تنسى أن تضع بعض الحلويات لبابا نويل وحيوانات الرنّة، أليس كذلك؟

ـ حسناً، لقد قمت بذلك.

ثم فتح زاك الباب وأضاف: «والآن! إلى الأعلى! سألحق بك بعد لحظات».

عندما أطاعت كاتي تعليماته ببطء متعمّد، هزّ رأسه قليلاً وقال: «آسف يا آبي، فالأطفال مستبدون أحياناً».

ولم يمضِ وقت طويل قبل أن تستسلم الطفلة للنوم، وتمكّنت آبي التي جلست قربها، من أن تسحب يدها وتخرج من الغرفة. عندما وصلت إلى فسحة الدرج، فكّرت في أن تنسحب إلى غرفتها على الفور، لكنّ تربيتها الحسنة منعتها من ذلك. كما أنها تشعر بالحماس... وبأحاسيس غريبة. لذا، نزلت السلالم مسرعة لتجد زاك في البهو يضيف هدايا إلى تلك المكدّسة تحت الشجرة في الزاوية.

استقام، وابتسم لها ابتسامة هاجمت حواسها على الفور، ثم سألها: «هل الأمور على ما يرام؟».

ـ نعم.

وكافحت لتسيطر مجدداً على تنفّسها قبل أن تضيف: «كانت شبه نائمة حين وصلت، حتى أنها لم تطالبني بقراءة قصة».

ـ هذا جيد. لنعد إلى المكتبة، فثمة فيلم جيد على التلفزيون، إذا ما رغبت في متابعته.

ـ حسناً، لست أدري.

مشكلتها أنها لا تثق بنفسها.

ـ كنت محقاً في ما قلته لكاتي، فأنا متعبة.

لم تكن هذه هي الحقيقة. فقد أحسّت بحيوية لم تشعر بها منذ سنوات، وهذا بحد ذاته تحذير خطر.

ـ نعم، حسناً، أعتقد أننا كلنا متعبون.

لكن، بالرغم مما قالته، وجدت نفسها تجلس أمام النار فيما انشغل زاك في مكان ما. تناهى إلى مسمعها صوت أزيز وطقطقة قبل أن تسمع الموسيقى.

ـ هذا الوقت من السنة متعب.

جلس قبالتها فيما شكّلت الموسيقى خلفية حميمة، ضغطت بنعومة على أعصاب آبي.

ـ أفترض أنه كذلك.

هذا العيد هو أصعب عيد عاشته منذ... منذ حوالى خمس سنوات تحديداً، فقد أنهك أعصابها.

ساد الصمت طويلاً فيما جلس زاك مرتاحاً في مقعده، فاستغلت آبي هذه الفرصة لتتأمله عبر أهدابها. أثناء وضعه اللمسات الأخيرة على الشجرة، أخفى طرف ربطة عنقه داخل قميصه ونسي أن يخرجها لاحقاً. وبدا شعره مشعثاً بعض الشيء، وكأنه مرر أصابعه فيه... هذه الملاحظات جعلت الألم يخنقها، وتملّكها نوع من الحزن العذب.

ولأول مرة، شعرت بشيء من الضعف لدى هذا الرجل الذي يتمتع بكل شيء. فهو يترأس شركة عالمية، لا بدّ أنها تعود عليه بمردود ضخم؛ لكن هل هذا العمل يتطلب منه التضحية بالجزء الآخر من حياته؟ الجزء الذي يتطلب منه أن يلعب دور الأم والأب لهذه الطفلة الصغيرة؟

كان يتأملها بدوره وقال: «هل قلت لك يا آبي كم أنت جميلة، كم... أنت فاتنة الجمال».

خرجت الكلمات من فمه ببطء وكأنه ندم على التلفّظ بها.

www.elromancia.com

اكتشفت آبي أنها حبست أنفاسها، فقد أحسّت بخطر مفاجىء، بالخطر والاغراء، وأملت أن تبقى قوية بما يكفي كي تقاومه، لكنها خشيت. . . ثمة صوت عنيف في أذنيها، صوت لا ينقطع، واعتراها الاضطراب بحيث لم تتلفظ بأيّ كلمة.

ـ تبدين جميلة دائماً وهادئة. لطالما كنت كذلك.

وتنهّد. أيشعر بمزيد من الندم؟ وبعد لحظة صمت، أضاف: «إنما الآن. . . أنت إحدى أكثر النساء سحراً. . .».

لا، ليست إحدى النساء، بل الأكثر سحراً!

راحت عيناه الرماديتان الصافيتان تتأملان وجهها، فشعرت بشفتيها ترتجفان. ماذا لو قام بالخطوة الأولى؟ ماذا لو احتضنها كما حلمت غالباً؟ إذا ما أخذها بين ذراعيه بحنانه المعهود. . . فستستسلم من دون شك. فهي لا تثق البتة بقدرتها على المقاومة.

لكن، وفي اللحظة التي شعرت فيها أنها على وشك أن تذوب، وأنّ أيّ احساس لديها بالحذر اختفى، جاءها الخلاص. بدا لها وكأن الرنين في داخل رأسها هي، لكنه تحرك وعبر الغرفة ليلتقط هاتفه الخلوي.

ـ باتريك. مرحباً. نعم. يسرّني ذلك. نعم، لقد نامت للتو، و. . . معي الآن. نعم وسأصعد بعد لحظة لأرى إن كان بابا نويل، و. . . .

بدا جلياً أنها حصلت على فرصة للهرب، وستكون غبية إن لم تستفد منها. وقفت، فلفتت حركتها انتباه زاك الذي التفت لينظر إليها. هزّ برأسه حين أشارت إلى أنها ستخلد إلى النوم ولم يقم بأيّ حركة ليمنعها، لذا عليها أن تشعر بالامتنان.

لكنها لم تفعل، لم تشعر بالامتنان بل أحسّت أنها محرومة

ومغتاظة. خلعت ملابسها وارتدت قميص نومها ثم وقفت في الحمام تنظف أسنانها بقوة غير معتادة. بعدئذ، جلست قبالة المرآة لتزيل الماكياج عن وجهها فسمعت طرقة حازمة على بابها.

ـ أدخل.

ورأت أنها أخطأت بكلمتها هذه، فسارعت إلى الباب لتمنعه من الدخول. . . لكن الأوان كان قد فات.

ـ آسف يا آبي. كان هذا باتريك الذي يرسل إليك تحياته الحارة.

رأت أنّ من الأفضل أن تتحدث معه في مواضيع عامة فسألته: «كيف حاله؟ وكيف كانت رحلته؟».

ـ جيدة. كنت على وشك أن أحمل منزل الدمية إلى غرفة كايت، وتساءلت إن كنت ترغبين في مساعدتي في ترتيب الأثاث. أملت أن أصل قبل. . .

وتأملت عيناه جسمها ثم عادتا إلى وجهها وأضاف: «ظننت أن الأمر سيعجبك، إنما إن كنت متعبة جداً. . .».

ـ حسناً. . . كنت على وشك الخلود إلى النوم.

ـ أدرك ذلك، لكن الأمر لن يستغرق طويلاً. وأنا واثق من أنك أفضل مني في هذه المسائل.

ـ حسناً.

شدت حزام عباءتها حول خصرها، واتجهت نحو سريرها لتنتعل خفّيها، وسألته: «أين بيت الدمية؟».

ـ في غرفتي.

وفتح باباً ثم تقدّمها ليرشدها إلى البيت. وفي الجانب الآخر من الغرفة، فتح خزانة ضخمة.

ـ يا إلهي!

www.elromancia.com

نسيت انزعاجها لأنه جرّها إلى غرفته، حين راحت تتأملها بفضول. لاحظت السرير الضخم الموضوع بين نافذتين عاليتين، لكن انتباهها تشتت فجأة حين لمحت المنزل الصغير المخفي في آخر الخزانة.

ـ إنه رائع!

وركعت تدرس تفاصيل المنزل المتقن الصنع.

جلس زاك على الأرض قربها وجذب بعض العلب قائلاً: «وهذه هي قطع الأثاث».

ـ لم أحصل على بيت دمية حين كنت صغيرة، وأتساءل الآن ما إذا افتقدت ذلك.

ـ إذن، أقترح عليك أن تستفيدي من الفرصة إلى أقصى حد قبل أن نسلّمه في الصباح.

ـ آه، زاك.

وراحت تبتسم لرؤية الكراسي والطاولات الصغيرة، وفي الوقت نفسه، سرّها أنها لم تشترِ الأغراض نفسها.

ـ لا أظنها ستلعب بهذا المنزل كثيراً. يبدو لي وكأن الغرض منه أن يتأمله الطفل بإعجاب وليس أن يلعب به. لكن هذا ما أرادته...

كانت أصابعها منهمكة في وضع الكراسي والإرائك في غرفة الجلوس قبل أن تنتقل إلى غرفة النوم، ورأت أنّ زاك مشغول بتركيب المطبخ.

قالت: «اشتريت بعض الأغراض للمنزل لكني سأقدمها لها في الصباح. فسيسرّها أن تفتح العلب».

ـ لا بدّ أن أحمل معي مفكّرة وإلا لن نعرف من أرسل أيّ هدية. فمن المزعج أن تُشكري على هدية لم ترسليها.

وأخيراً، أنهيا عملهما. تركها زاك ليتأكد من أنّ كاتي غارقة في النوم، قبل أن يحملا المنزل معاً ليضعاه عند أسفل سريرها حيث علّقت جوربها الصوفي. وكان زاك قد ملأ الجورب بالفواكه والسكاكر وبعلبتين صغيرتين، فبدت الغرفة كلها في عيد. وبعد أن أنجزا مهمتهما، أطفآ الضوء وانسحبا من الغرفة قبل أن يغلقا الباب.

ـ شكراً لك يا آبي.

كانا يقفان قريبين من بعضهما البعض، فتكلم بصوت خافت كما لو أنه يخشى أن يسمعه أحد: «كان عيد الميلاد ليمرّ علينا مملاً لو أمضيناه أنا وكاتي وحدنا».

ـ أنا واثقة من أنك كنت ستتدبر أمورك.

شعرت أنها مخطوفة الأنفاس فيما راح قلبها يتخبط بقوة بين أضلعها، وأضافت: «كما أني... استمتعت به، كان اليوم مسلّياً».

ـ مسلٍّ؟

زمّ شفتيه ثم ابتسم ابتسامة صغيرة وتنهّد. رفع يده وداعب بأنامله خدّها، ولم يتوقف إلاّ حين أحسّ بها ترتعش. ركّزت عيناه على ردّ فعلها، فأغمضت عينيها وارتجف صوتها حين لفظت اسمه بتأوه.

ـ زاك!

كان في صوتها التماس. وراح الدم يتدفّق في عروقها بوتيرة سريعة وملحّة، وحين لفظت اسمه مجدداً، ارتعش صوتها بشوق كبتته طويلاً. عندئذ، أخذها بين ذراعيه وضمها إلى صدره علّه يطفىء نار شوقه إليها.

نادته مجدداً من بين أنفاسها المتسارعة، فيما راحت يدها تداعب شعره وتشعثه.

ـ زاك... أرجوك... لا تفعل هذا.

www.elromancia.com

فرد بصوت خشن وهو يدنيها منه أكثر: «لا بدّ أن أفعل. لا أستطيع أن أمنع نفسي وأنت تعلمين ذلك».

وعانقها بشغف وحنين ثم قال: «لقد مرّ وقت طويل. ولهذا السبب أحضرتك إلى هنا. ولهذا السبب جئت أنت».

ـ نعم... نعم... فأنا أحبك.

وفي غمرة استسلامها لعواطفها الجارفة سمعته يقول وهو يتأوّه: «وأنا أريدك».

جملته الأخيرة صدمتها وأعادتها إلى أرض الواقع. تذكرت ما عاهدت نفسها عليه وتذكرت آلام الماضي، فصرخت به: «لا».

وركضت إلى غرفتها من دون أن تلتفت إلى الخلف.

***

٩ ـ ثمن الجرح

وقف زاك جامداً للحظات يحدّق إليها من دون أن يأتي أيّ ردّ فعل. فمنذ لحظات، كانت ناعمة، رائعة، مستسلمة بين ذراعيه، وفجأة، ومن دون سابق انذار أبعدته عنها، وفرّت لتلجأ إلى غرفتها.

أما آبي فتملّكها الحزن، فيما تسارعت دقات قلبها وكاد الذعر يخنقها. ما حصل كان متوقّعاً، هذا ما اعترفت به لنفسها. واللحظة التي خشيتها، والتي خطط لها هو بدقة، حصلت من دون أن يبذل أيّ جهد إضافي، فقد استسلمت لعناقه واعترفت له بحبها بسهولة ومن دون أيّ مقاومة.

النساء غبيات عندما يتعلق الأمر بالرجال. فقد عرفت نيته منذ البدء، أو على الأقل ساورتها الشكوك حولها. علمت أنه ينوي أن يستأنف علاقتهما من حيث توقّفت. وهي... هي سهّلت له الأمور. واعترفت في سرّها أن أملاً ضعيفاً دفعها إلى قطع هذه المسافة كلها. ادّعت المعارضة، لكنها كانت دوماً مستعدة لمجاراته، وهذا بالرغم من أنها تعرف أنّ لديه طفلة... وربما زوجة.

تباً! لكنها على الأقل استفاقت من جنونها في اللحظة المناسبة وانسحبت بكرامتها قبل أن يتخلّى عنها مجدداً ساعة يشاء. قال إنه يريدها ولم يقل إنه يحبها. فهو لم يحبها يوماً، ولو أحبها لما تخلى

عنها بسهولة. وعدها بأن يعود، لكنه لم يفعل. فما الذي ترجوه الآن؟ لا، لن تغفر له أبداً.

زمّت شفتيها لتمنع الدموع التي انهمرت كالأنهار على وجنتيها، وجلست على طرف سريرها واضعة رأسها بين يديها. كيف سمحت له بمعانقتها؟ وكيف اعترفت له بحبها؟ مسحت دموعها بعنف، فهي لن تلجأ إلى البكاء مجدداً.

تمددت في السرير، تبحث عن العزاء في النوم، لكن النوم جافاها. راحت تتقلّب لساعات حتى هدّها التعب فاستغرقت في سبات عميق.

وما أن استيقظت في الصباح حتى عاودتها ذكريات الأمس، فأطبقت أسنانها بقوة وتوجّهت إلى الحمام. عندما وقفت تحت المياه المنهمرة، ما كان بإمكان أحد أن يعرف ما إذا كانت تبكي.

عندما سمعت الطرقة النافذة الصبر على بابها، كانت قد رأت من نافذتها أنّ العاصفة الثلجية مستمرة في الخارج، فارتدت ملابس ملائمة، كما رفعت شعرها وشرعت في وضع بعض الزينة على وجهها. انفتح الباب قبل أن تجيب ووقف زاك على العتبة للحظة قبل أن يدخل.

ـ آبي؟

لم تجبه فتقدّم أكثر وقال: «آبي؟».

ـ زاك.

ردّت بنبرة باردة أملت أن تخفي عذابها الداخلي، وتفهمه رأيها. وقفت ومرت قربه كما لو أنه غير موجود، لكن شرارة اشتعلت بينهما حين فعلت ذلك. فمدّ يده وأمسك بذراعها ثم أدارها نحوه لتواجهه.

لم ينطق بأيّ كلمة بل اكتفى بدراسة ملامحها، وعبس حين حدّقت عيناه إلى عينيها. استجمعت آبي قوتها كلها لتتمكّن من أن تحدّق إليه

بدورها من دون أن يطرف لها جفن، كما لو أنّ جلدها لا يحترق من لمسته. لن تجعله يرى دموعها مجدداً، وإن كانت توشك على الانهمار. تمالكت نفسها ونظرت إلى الأصابع التي تضغط على ذراعها، ثم رفعت نظرها بهدوء إلى وجهه، وقالت: «أنت تعلم أنك تؤلمني».

ما هو تأثير كذبة أخرى في المسألة كلها؟

أطلق سراحها على الفور من دون أن يبدو على وجهه أيّ أثر للاعتذار وسألها: «هل أنت غاضبة ونادمة؟».

ولاحقتها عيناه وهي تعبر الغرفة متوجهة إلى الخزانة.

غضب وندم؟ وعبثت ببعض حمّالات الثياب من دون داع. بالطبع، إنها غاضبة ونادمة. ألم تخل بالقواعد التي وضعتها لنفسها؟ ألم تسمح له بأن يسحرها، أو على الأقل لم تحاول للحظة أن تقاوم سحره؟ ألم توقظ مجدداً تلك المشاعر والعواطف... والآلام؟ وضاقت عيناها. أغلقت الخزانة، وراح تفكر، لو أمكنها أن تعيد الساعة إلى الوراء، فهل تفعل؟ لم يكن لديها أدنى فكرة عن الجواب.

قال حين التفتت إليه: «أنت فعلاً نادمة».

الندم؟ كما لو أنّ هذه الكلمة يمكن أن تصف ما تحسّ به... لكنها ضحكت وقالت: «ما رأيك يا زاك؟ أنا لم أختر الحضور إلى هنا في البدء، كما لم أشأ أن استسلم لعناقك وينتهي بي الأمر بين ذراعيك. إنما أتصور أن الأشخاص أمثالك ينالون دوماً ما يريدون. لكنني ألوم أمثالي لأننا نسهّل لكم الأمور».

ـ إذن، لم يكن في يدك حيلة؟

ـ أنا لم أخطط وأتآمر وأحاول كل الخدع.

ـ أرجوك يا آبي. أنت أكثر خبرة مني في مجال السحر والاغراء.

فيكفي أن تقفي هنا وترفرفي بأهدابك الطويلة. . . وهذا ما تفعلينه الآن.

- نعم، فيذوب الرجال الأقوياء. . .

فردّ عابساً: «نعم. وتدّعين أنك ما رغبت في عناقي؟».

- لم أخطط لذلك بالطبع.

- لكنك لم تقاومي أيضاً في البدء، بل استسلمت لعناقي واستمتعت به. وكدنا نفقد السيطرة على الوضع لو لم تتراجعي في اللحظة الأخيرة وتتركيني حائراً.

- لا أرى فائدة من مناقشة الأمر أكثر. فما حصل قد حصل. وأظن أنها غلطتي بقدر ما هي غلطتك.

- غلطة! بالله عليك!

كان صوته مثقلاً بالكآبة وكذلك قلبه. لقد أحضرها إلى هنا في لحظة جنون ودفعه إلى ذلك خليط من الفضول وحب الانتقام، لكنه اكتشف. . . أنه وقع في براثن شعور أقوى من إرادته وتصميمه. حتى أنه ظن الليلة الماضية حين كانت بين ذراعيه، وقبل أن تهرب منه، أنهما وجدا بعضهما البعض بالرغم مما جرى في الماضي.

- كيف يمكنك أن تتحدّثي عن غلطة؟

- آسفة إذا ما أزعجتك الكلمة، وربما بإمكانك أن تختار كلمة تصف الوضع بدقة أكبر. لكن في هذه الأثناء. . .

والتفتت إلى النافذة لترى رقع الثلج تتساقط، وتتجمع في الشقوق وتتكدّس على الحافة، ثم أضافت: «يبدو أنّ السفر مستحيل اليوم، لذا أقترح أن يتجنّب أحدنا الآخر قدر الإمكان. والمنزل لحسن الحظ كبير بما يكفي».

- إذا كان هذا ما تريدين.

ورمقها بنظرة قاتلة وقاسية قبل أن يتوجه إلى الباب. لكنه توقّف للحظة ليقول: «أرجو أن نتصرّف خلال الفترة المتبقية من إقامتك هنا كأناس متمدنين. اليوم يوم الميلاد، وأردته أن يكون مميّزاً بالنسبة إلى كاتي. . . إلينا جميعاً».

- لا أنوي أن أفسد يوم كاتي. أنا. . . أريد أن يكون يومها رائعاً.

جرحتها فكرة أن يظنها حقيرة بحيث تفسد يوم العيد على ابنته.

بدا مقطباً، بارداً، متّهماً، كما لو أنّ ما حصل غلطتها، كما لو أنّ اللوم يقع عليها. أقفل الباب بنعومة مفتعلة، حتى أمكنها أن تتخيّل مدى رغبته في صفقه بقوة.

بعد عشر دقائق، وبعد أن تأخرت من دون داعٍ في غرفتها، نزلت آبي إلى المطبخ لتحضّر الشاي. كانت تأخذ أول رشفة من فنجانها حين سمعت نداء من الطابق العلوي.

سمعت اسمها في الحديث غير المفهوم، فخرجت إلى البهو. كان الوجه الصغير يطلّ من الأعلى، طالباً منها الصعود لترى ما أحضره بابا نويل.

بدأت تصعد الدرج بتردد، وسألت: «إذن، فقد جاء؟».

- نعم.

بدت الإثارة على وجه الطفلة جليّة حتى من بعيد، وراحت تقول بسرعة: «نعم، جاء يا آبي وترك لي أجمل بيت دمية و. . . تعالي يا آبي. اصعدي أرجوك!».

وسارعت إلى غرفتها.

أكملت آبي صعودها ببطء، غير مستعدة للاعتراف حتى لنفسها كم تكره موقفها هذا. وترددت أكثر حين سمعت حديث الطفلة المتسارع والردود الأبطأ المدروسة. لكن، أخيراً، طرقت الباب ودخلت.

ـ مرحباً، أتمنى لكما ميلاداً مجيداً.
ـ ميلاد مجيد يا آبي.

ووقف زاك عن الأرض حيث تربّع بين أوراق الهدايا قبالة منزل الدمية وكان من الوقاحة بحيث ابتسم لها. آه، مجرد ابتسامة صغيرة، جعلت حواسها تتيقّظ، ومخيلتها تجمح، والدماء تتدفق إلى خدّيها. لكن عينيه نظرتا إليها بما يشبه النفور. كيف يجرؤ على ذلك؟ نقمتها غذّت غضبها، وحرصت على أن يفهم حقيقة مشاعرها. لكن في مواجهة هذا القدر من الإثارة البريئة، وجدت أنّ من الصعب أن تحافظ على واجهة من عدم المبالاة. وسرعان ما وجدت نفسها متربعة على الأرض فيما جالت بها كاتي في أرجاء المنزل. حتى أنها رغبت في تبادل نظرة تسلية مع زاك، لكنها تذكرت ما جرى فتركت الابتسامة تموت فجأة على شفتيها.

وما لبثت أن اعتذرت بحجة تحضير الفطور. وقبل أن تنزل إلى الطابق السفلي، حملت هداياها لكاتي ووالدها وأضافتها إلى تلك المكدّسة عند الشجرة. في البدء، أرادت أن تسلمهما الهدايا بنفسها، لكنها الآن. . . فقدت قدرتها على القيام بذلك. كان من المستحيل أن تبتسم في وجهه بعد ما جرى.

في المطبخ، وضعت البيض والزبدة والكريما في قصعة وخفقتها. وكانت قد جهّزت لهما قصعتين من الفواكه على طاولة المطبخ، ووقفت تحدّق إلى العاصفة حين انفتح الباب خلفها. التفتت ووقفت أمامه، وقد وضعت يديها في جيبي سروالها.

ـ آسف لأننا احتجزناك هنا يا آبي.

بدت كنزته الصوفية بلون التوت أنيقة مع بنطلون الجينز الأسود الذي يرتديه. أما شعره الأسود، بخصله الفضية عند الصدغين، فتسبب

لها بألم مفاجيء في صدرها. لكن كيف يمكنه أن يعكس بسهولة هذا العذاب المرير في حين أنه السبب؟

فُتح الباب أكثر ودخلت كاتي التي لم تكف عن الكلام أثناء الفطور، فيما حاول الراشدان أن يتصرفا على أفضل وجه من أجلها. كان البيض المقلي مع السلمون المدخّن لذيذاً. بعدئذ، تأخرت آبي في المطبخ، ترتّبه، وتطيل العمل فيه قدر استطاعتها. لكن الباب انفتح فجأة، وأطلّت كاتي برأسها وقالت: «آبي، أبي يسأل إن كنت ستأتين؟ فلا يمكننا أن نفتح بقية الهدايا حتى. . .».

ـ كاتي، لا تستعجلي آبي.

ظهر عند عتبة الباب خلف ابنته، ورمقها بنظرات متهمة، ثم أضاف: «أنا واثق من أنّ آبي تنوي تنظيف أرض المطبخ».

ـ الأرض؟

ظهر الرعب في صوتها فيما نظرت إلى الأسفل، إلى قدميها الصغيرتين على البلاط اللامع. وأضافت متسائلة: «تنظّفها؟».

بدا أنها لم تواجه هذه المهمة من قبل، وكان اندهاشها ليثير الضحك في ظروف مختلفة.

ـ أظن أنّ والدك يمزح يا كايت.

ولم ترمقه بنظرة بل مدّت يدها إلى الطفلة وأردفت: «وقد أنهيت عملي هنا».

في ضوء البهو الخافت، راحت أنوار الشجرة تومض وتلمع، وهم يفتحون الهدايا. في البداية، حاول زاك أن يسجّل الاسماء، لكن آبي أشفقت عليه واستلمت المهمة عنه. وبعد حين، وجدت كاتي هدية آبي، فابتهجت لرؤية قطع الأثاث الصغيرة لمنزل الدمية، ولوحات عديدة للجدران، ومذياع صغير، ومصابيح تضاء على البطاريات،

وكلب صغير يستلقي أمام المدفأة، فضلاً عن مجموعة من الاشخاص الذين يمكن تحريكهم، ليجلسوا أو يقفوا بحسب رغبتها.

تفحّص زاك كل قطعة على حدى وقال: «أليست رائعة؟ إنها ما يحتاجه المنزل تحديداً. لا بدّ أنّ بابا نويل تحدّث إلى آبي، وقال لها ما ينقصك».

بعدئذ، فتح زاك هديته من آبي، وحمل المجلّد طويلاً قبل أن يفتحه، ويتأمل بعض الصور فيه، ثم قرأ عناوين المقطوعات الموسيقية التي اختارتها له. شكرها بهدوء، وقد بدا مستغرقاً في أفكاره، لكن كاتي قطعت حبل أفكاره على الفور.

ـ لكن، أين هديتي لآبي؟ أرجو ألاّ تكون... لا، ها هي. هذه مني يا آبي.

ـ أرى ذلك.

كان توقيع كاتي واضحاً على الهدية، وراحت تراقب آبي بنفاد صبر وهي تنزع الورقة الملوّنة عن زجاجة العطر.

انحنت تقبّل الوجه المحمّر وهي تقول: «رائع! إنه عطري المفضّل وفي زجاجة مذهلة».

حمل زاك هدية ملفوفة بورق أحمر وذهبي وقدّمها لها. كان لعدم رغبة آبي في فتحها علاقة بشكلها الذي يفضح محتواها، لكن بوجود كاتي...

ـ شكراً لك.

لم تجرؤ على النظر إليه، فابتسمت للطفلة وقالت: «أتساءل ما هي؟».

ـ أنا أعرف! إنه...

ووضعت كاتي يدها على فمها تطبقه بإحكام، فيما فتحت عينيها

بشكل مبالغ فيه.

ـ آه، إنها...

ونظرت آبي برعب إلى قطعة المجوهرات الباهظة الثمن، المستكينة في حضن العلبة المخملية ثم أضافت: «... إنها رائعة».

رائعة وباهظة الثمن! فكل ما فيها يوحي بالجودة والكلفة، ما يجعل من المستحيل أن تقبلها... سلسلة من الذهب مع قلادة كروية الشكل من الذهب المشبك، متقنة الصنع.

ـ إنها هدية رائعة. شكراً لك يا زاك. شكراً لكما.

ـ أنا أحببتها أيضاً يا آبي، فقد أراني إياها أبي. أعجبتك فعلاً، أليس كذلك يا آبي؟

ـ أحببتها فعلاً.

ـ والعطر.

ـ كما قلت لك إنه عطري المفضّل.

وجمعت الفتاة الصغيرة هداياها كلها وقالت: «والآن، سأصعد إلى غرفتي مع أغراضي. ستلحقين بي قريباً يا آبي، فأنا أريد أن أريك كل ما تلقيته».

ـ بعد دقيقة يا عزيزتي.

ـ وأنت أيضاً يا أبي.

ـ نعم. قريباً جداً.

عندما أصبحا وحيدين، اقترب منها زاك وهو يحمل المجلد الذي أهدته إياه، وقال: «أود أن أتفرّج على هذا، و....».

ـ إنه شيء لا يذكر.

ولشدة خوفها وإصرارها على منع دموعها من الانهمار، بدت فظة في كلامها: «كما قلت، لم يتسنّ لي الوقت و... لا يمكنني أن أقبل

هذه الهدية. فلا داعي لها و . . . ».

ـ أريدك أن تأخذيها يا آبي، فقد اشتريتها لك على سبيل . . .

ـ المكافأة؟ للخدمات التي قدّمتها، لاهتمامي بابنتك؟

ـ كيف يمكنك أن تقولي هذا؟

ارتسم الغضب الشديد على وجهه. وأقسم في سرّه على أنها لن تعرف أبداً أنه أخفى هذا العقد مع أوراقه الخاصة منذ التقيا في النورماندي، عندما كان يافعاً بما يكفي ومجنوناً بما يكفي ليعتقد أنّ بإمكانه أن يحصل على كل شيء.

وتابعت كلامها وكأنه لم ينطق: «وإذا كان كذلك، فأرى أنك تبالغ ولا أظن أنك حصلت على ما يوازي قيمتها».

ـ لم تكن القيمة هدفي. بدت لي مناسبة بكل بساطة.

لن يتمكن شيء من سحب اعترافه منه، لن يعترف بمشاعره الحقيقية، المشاعر التي بالكاد يفهمها هو.

وحدّقت العينان المعذبتان إليه باتهام: «أنا لست غاضبة منك يا زاك. فأنت تفعل ما يحلو لك، تتلاعب بالآخرين وتسبب لهم الألم، كغيرك من الرجال. بعدئذ، ترمي لهم بمكافأة لتريح ضميرك. حسناً، كما سبق وقلت، لن أقبل هديتك، علماً أنّ ذوقك ممتاز».

بدا كئيباً حين رمقته بنظرة خاطفة، فشعرت بشيء من الرضا لأنها قادرة هي أيضاً على جرحه، وعلى إسالة دمه.

ـ أتعلم؟ النساء حمقاوات حين يتعلق الأمر بالرجال، ويمكنهن أن يتصرفن بغباء كما فعلت فيجتزن الأطلسي من أجل رجل. وهن لا يستحققن المكافآت.

ـ لديك خبرة واسعة مع الرجال وطرقهم الملتوية، أليس كذلك؟ نعم، قيل لي إنك تفضّلين الرجال المتزوجين، لذا. . .

ـ كما كنت أنت؟

وبالرغم من أنّ اتهامها كان يشير إلى النورماندي، إلاّ أنّ أفكاره عادت إلى زمن أقرب، وجاء ردّه بطيئاً، وكأنه لا يرغب في قوله: «نعم، كنت متزوجاً».

لـمَ أهانها بالحديث عن الرجال المتزوجين؟ لقد اكتشف منذ فترة حقيقة تعليقات جيسيكا التي لم يكن دافعها سوى الغيرة.

أما آبي التي كانت لا تزال تحمل علبة المجوهرات، فوضعتها على الطاولة بطريقة تضع حداً لنقاشهما واستدارت لتصعد السلالم، قائلة: «من الأفضل أن أصعد وأساعد كاتي. وبما أنه يبدو أنّ لا أمل لي في السفر اليوم، أرجو أن تتمكّن من إسعاد ابنتك في هذا اليوم. فهو يوم ميلاد».

وقبل أن تتمكن من الصعود، أمسك بمعصمها ليوقفها، فأحاطت أصابعه القوية بعظامها الرقيقة بقوة آلمتها، لكنه ما لبث أن أرخى قبضته وكأنما أحسّ بتراجعها. وقال لها من بين أسنانه المطبقة: «أتقصدين أنك عانقتني ليلة أمس رغماً عنك؟ فبحسب رد فعلك، لم يبدُ لي أنك كنت تمانعين، فقد بادلتني العناق بشغف واضح. إلاّ إذا كنت تمثّلين ولهذا تستحقين جائزة أفضل أداء».

للحظة، لم تفهم ما قاله. وأخيراً، قالت بهدوء لم تكن تشعر به: «أفترض أنني أستحق ما قلته».

بدت عيناه عاصفتين، مليئتين بالنفور، لكنها تابعت: «أنت محق، لم أحتج للإقناع. لم أضع مخططات ومؤامرات، إلاّ أنّ ذلك يجعلني مذنبة أكثر».

صرخ بها: «مذنبة! بالله عليك، لما تصرّين على استخدام هذه الكلمة؟ فلا مكان للذنب هنا».

ـ كل ما تقوله صحيح بالطبع.

بعدئذ، ركضت على السلالم لتنضم إلى كاتي أمام منزل دميتها.

مرت بقية اليوم على خير، وكأن الراشدين قررا أن يحميا كاتي من مرارتهما. لم يكن من السهل أن يمزح المرء ويضحك والتعاسة قد تفشّت فيه كوباء خطر. ورأت آبي أنّ الابتهاج المفروض عليها رغماً عنها أفادها، فقد منعها من البكاء على أطلال حياتها.

تناولوا الغداء الرائع الذي حضّرته كاتيا وأمها قبل رحيلهما، لكنهم لم يستمتعوا به. ولاحقاً، حين جلستا في المكتبة بانتظار عودة زاك مع القهوة، اكتسحت آبي موجات من الاكتئاب تتعارض مع محيطها المريح والأنيق. ما هو أنسب في مثل هذا اليوم من الجلوس هكذا بعد الغداء، أمام نار مضطرمة في المدفأة، وطفل يستند إلى ركبتيك فيما تقلّبين صفحات كتاب قصص جديد! تنتظرين الرجل الذي أحببت ليفتح الباب و. . .

لكنها كبحت مخيّلتها، رافضة الاستمرار في هذا السبيل، بالرغم من أنّ كيانها كله يناديه، ويتوق إليه بعد سنوات الحرمان الطويلة. رفعت عينيها عن صفحات الكتاب وحدّقت إلى النافذة، في محاولة منها لإلقاء اللوم في بؤسها ووحدتها على الطقس الشتوي.

لم يعد الثلج يتساقط، إلاّ أنّ تلبّد الغيوم في السماء لا يدعو إلى التفاؤل. إذا ما اضطرت للبقاء هنا مدة أطول، فهي لا تجرؤ على التفكير في ما قد. . .

انفتح الباب، ودخل زاك حاملاً صينية، وضعها على طاولة صغيرة ودعا آبي لصبّ القهوة.

في الواقع، سرّها أن تجد عذراً لتبتعد عن المهمة المطلوبة، من دون شك، من الأهل في كافة أنحاء العالم. الأهل! تملّكها الغضب من

نفسها لهذه الهفوة.

لم تستطع أن تنظر إليه، إلى تينك العينين الصافيتين، لتتذكر كيف خدعها. أم خدع بريدجيت؟ ربما الاثنتين معاً. هزّت رأسها لتنتزع هذه الأفكار منه، وراحت تصبّ القهوة.

سلّمته فنجانه وعرضت عليه السكر والحليب، لكنه رفض ورفع الفنجان إلى شفتيه.

جلست في مقعدها مبتسمة، متباعدة قدر الإمكان، ومالت برأسها جانباً. تمطت قليلاً، ثم غرقت في مقعدها، وتركت الراحة والدفء يزحفان إلى كيانها. وعندما شعرت بجفنيها يطبقان لم تتمكن من المقاومة. كانت تسمع صوتي زاك وكاتي الخافتين من بعد، كما تناهى إليها صوت ضحكة مكبوتة، لتفقد الإحساس بما حولها بعد قليل. . . تحررت من ألم وصدمة الساعات الأربع وعشرين الماضية، وتمكّنت أخيراً من الابتعاد عن الواقع.

وعندما استيقظت، تطلّب اعتيادها على الضوء الخافت في الغرفة بضع دقائق. فقد خمدت النار، وزاد من وميضها الأضواء المعلقة على الأشجار في الخارج وانعكاسها على السجادة البيضاء السميكة التي شكّلها الثلج. كافحت مجدداً لتستيقظ، فقد كان من السهل أن تغمض عينيها مجدداً، لكنها قاومت هذا الإغراء. تحرّكت وعبست. وعندئذ فقط، لاحظت القامة الواقفة قرب النافذة.

وقف زاك ماغواير لبعض الوقت مكتفياً بالنظر إليها وهي مستغرقة في النوم. إنه تطفّل بالطبع، لكنه تأثر للغاية بمظهرها، بشفتيها المنفرجتين قليلاً وبوتيرة تنفّسها الرتيبة. كما أثّر فيه شكل عظمتي وجنتيها المرتفعتين اللتين تسلبان اللب، ورموشها الداكنة المنسدلة على بشرتها البيضاء. وآلمه أنه أفسد الأمور بينهما كلياً.

كان التخطيط سهلاً ولا يقاوم بعد أن مرّت صدمة رؤيتها للمرة الأولى منذ أسبوعين. وبعد كل هذه السنوات التي سعى فيها إلى إقصائها عن حياته، وإلى إقناع ذاته بأنها مجرد ضرب من الخيال، جاءت لتقوّض جهوده في لمح البصر. عندئذ، اتخذ القرار بإحضارها إلى هنا، ليتحقق من مشاعره، ليحاول أن يفهم... لكن قراراته هذه طارت في مهب الريح في مواجهة رغبته الشديدة في استعادة ما كان بينهما من حب في النورماندي. لقد أرادها... أرادها بكل بساطة، كما لم يرد أيّ شيء آخر في حياته كلها.

ها قد فتحت عينيها الذهبيتين، الجميلتين، لا بل الأخاذتين اللتين أراد أن يغرق فيهما، لكنه... أفسد الأمور.

اقترب منها فرأى نظراتها تتركز على وجهه، ثم قال: «آبي، لقد نمت طويلاً».

تمطّت وكبحت تثاؤبة. لم تنم جيداً الليلة الماضية، لكنها لم تشأ مناقشة هذا الموضوع.

ـ كنت... مرتاحة للغاية. أين... أين كاتي؟

ـ إنها نائمة أيضاً.

خطا خطوة أخرى ووقف عند رفّ المدفأة حيث يمكنه على ضوء النار أن يرى أيّ تغيّر في تعابير وجهها. كان عليه أن يضيء أحد المصابيح، لكن انعكاس ضوء الجمر بدا مغرياً. تمطت مجدداً، ثم رتّبت مظهر كنزتها الأنيقة... صرّ أسنانه، مركزاً على ما عليه القيام به. وبدا فظاً أكثر مما تصوّر حين قال لها: «آبي، علينا أن نتحدث».

ـ لا.

وقامت بمحاولة للوقوف لكن يده منعتها. فجلست في مقعدها، وقد أدركت أنه محق، وتقبّلت فكرة أن لا مفرّ من الحوار، مهما كان

مزعجاً. كانت تنظر إليه نظرة أشبه بالنفور، وقالت: «لكني ما زلت لا أعلم فعلاً، لما ذهبت إلى هذا الحد. لقد قلّبت الأمر من كافة الجوانب فلم أجد مبرراً أو تفسيراً... وسألتك أكثر من مرة فتجنّبت دوماً...».

مرّ دهر قبل أن يتكلم، وأشاح بنظره عن الألم الذي رآه في عينيها، ألم أحسّ به في قلبه.

ـ ظننت أنّ السبب واضح للعالم كله ولك. بالرغم من أنني حاولت أن أدّعي العكس، حاولت أن أتجنّب ما عرفت في أعماقي أنها الحقيقة، حقيقة أني أحبك وأنني أحببتك طوال حياتي على ما يبدو، أو على الأصح...

واختفى صوته فاضطر إلى التركيز ليحسن اختيار كلماته: «منذ عرفتك في النورماندي».

نفذت السعادة إلى قلبها بسرعة كالخنجر الصغير. وللحظة، غمرها الدفء الحارق الذي لطالما حلمت به، فيما راح قلبها يتخبط بين ضلوعها وظنّت أنه يسمع دقاته المتسارعة. إلا أنّ الواقع استعاد سيطرته كحجاب أسود، فعادت إلى صوابها.

ـ منذ عرفتني في النورماندي؟

نبرة التشكيك الباردة في صوتها جعلت ملامح وجهه تكفهرّ. وتابعت بمرارة: «لكنك نكثت بوعودك لي. عدت من النورماندي مباشرة لـ... لتتزوّج. إلاّ إذا كنت متزوجاً من قبل».

ساد الصمت للحظات قبل أن يجيب بكلمات بسيطة ومحددة: «لا، لم نكن أنا وبريدجيت متزوجين حينذاك».

ـ أو لعلها وجدت نفسها حاملاً بكل بساطة، وهذا سيناريو خطر لي للتو.

- بالله عليك يا آبي، هلاّ استمعت إليّ؟ عندما تركت النورماندي، لم أكن أريد شيئاً بقدر ما أردت العودة إليك في أسرع وقت ممكن. لكنني تلقيت رسالة تفيد أنّ أبي مريض جداً، فاضطررت للعودة على الفور. اتصلت بالشركة وتحدّثت إلى توم الذي وعدني بأن يوصل الرسالة إليك. وأرى أنه لم يفعل؟

رآها تحرك رأسها في حركة نفي بسيطة فيما اغرورقت عيناها بالدموع.

- اتصلت مجدداً من الولايات المتحدة، فأجابتني امرأة، وقالت لي إن البيت قد بيع، وأعطتني عنواناً يمكنني أن أرسل عليه رسائلي فتستلمينها بعد عودتك من عطلتك.

- هاريت.

نطقت الاسم بصوت متقطّع، وهي تتذكر كيف أُرسلت في مهمة مستعجلة إلى جيرسي حيث تملك الشركة بعض المصالح.

- كتبت مراراً على عنوان في ايلينغ بحسب ما أذكر.

شعر زاك بالغضب وهو يراقب التغيير الذي طرأ على تعابير وجهها، وبعد أن بدأ يفهم ما حصل فعلاً.

واندفعت آبي تقول: «عنوان هاريت. أعطتك عنوان شقتها كي تتمكن... وهل قالت لك إني كنت في عطلة؟».

- مع صديق لك.

- يا إلهي. أجد الأمر صعب التصديق حتى منهما. فقد سرقا مني كل شيء... كان من المفترض أن أرث المنزل في النورماندي، لكنهما أقنعاني ببيعه... وأسهمي في الشركة أيضاً.

ارتجف صوتها وراحت تبحث في جيبها عن منديل، ثم تابعت تقول: «أفترض أني كنت ساذجة للغاية حينذاك بحيث لم أرَ أنه يسيّرني

بحسب إرادته. لقد وثقت به ثقة عمياء، ووثقت بأنه يهتم لمصلحتي. لا بدّ أنّ وجود شخص غريب أرعبه، فهو يشكّل تهديداً لمصلحته. وهذا يفسّر لما سارع للمجيء حين علم أنك في المزرعة».

- هل اتصلت به وأخبرته؟

هذا السؤال حيّره طويلاً، لكنه طرحه أخيراً فردّت: «لا، لم أفعل. إنه جارنا السيد جاك. لكن، كما قلت لك، كانا يسرقان الشركة منذ مدة، منذ اضطرت أمي للتخلّي عن إدارتها... هذا لا يعني أني أهتم للمال، فهو لا يعني لي شيئاً الآن، لكن...».

وعضّت على شفتها السفلى بقوة وأردفت: «لكن الكذب... لا يمكنني أن أغفر لهما، لا سيّما وأنهما عرفا حقيقة مشاعري».

عندئذ، اقترب منها وجذبها إليه فأحسّ بها ترتجف. قال: «لا تبكي يا آبي. فقد انتهى الأمر الآن وهما لا يستحقان دموعك. صدقيني».

كان لديه تحفّظات على زوج أمها منذ البدء، وشعر ببعض الغيرة منه لشدة تأثيره عليها.

- شعرت حين كنّا في النورماندي أنكما، أنت وتوم، على... علاقة أكثر من متينة.

فردّت باندفاع: «هذا صحيح. كنت أثق به كما تثق الفتاة بوالدها، فهذا ما كان عليه بطريقة ما. فقد أحبته أمي كثيراً، وكان لطيفاً معها. بعد ما حدث في النورماندي، حاول أن يواسيني، وقال لي إن قصص الحب التي تحصل في العطلات لا تدوم وإني سأتمكّن من تخطي المسألة. لكنه كان مخطئاً، فأنا لم أفعل أبداً، و... أولئك الرجال المتزوجون الذين تحدّثت عنهم... لا وجود لهم».

- أعلم ذلك. كنت مجروحاً و....

شعرت بالغيرة.

ـ زاك، أنا آسفة بالنسبة لأبيك. لو علمت...

ـ نعم، كان وقتاً عصيباً للجميع وكان ينبغي أن نكون معاً، ليساند أحدنا الآخر. لطالما تملّكني في أعماقي مشاعر مماثلة لمشاعرك. شعرت بأني مهجور، وحيد، وربما.. لهذا السبب أحسست بالحاجة إلى... معاقبتك.

حدّقت آبي إليه، غير قادرة على تقبّل ما قاله للتو. أما زاكاري ماغواير، الذي كان يراقبها ورأى النور الداخلي يبهت وينطفىء، فانتظر دهراً لكي تجيبه، دهراً بدت فيه بعيدة عن العالم المحيط بها. وأخيراً، تنهدّت تنهيدة عميقة وكأنها تنفض الكآبة عن قلبها، ثم تكلّمت بصوت فقد رنينه السحري:

ـ حسناً، لقد نجحت يا زاك. فإذا كان العقاب مبتغاك، أعلن لك أنك نجحت وأكثر مما تتصوّر بكثير.

* * *

١٠ ـ صور في النار

أصبح الجو بينهما مشحوناً بالبؤس وسوء التفاهم، مثقلاً بعواطف مكبوتة منذ سنوات عديدة. كانت آبي لا تزال تحاول استيعاب مدى خيانة توم، وشعرت بجرح عميق بحيث ودّت لو تنسحب إلى غرفة مظلمة، تبقى فيها وحدها لتطلق العنان لألمها. وعندما سمعت زاك يتكلم أجفلت ما جعله يتراجع خطوة إلى الخلف.

ـ آبي، تعاستك تمزّق قلبي إرباً.

كان صوته خافتاً، قلقاً، فردت: «لا تقلق».

عليها أن تبدو قوية من أجل مصلحتها، مهما تطلّب ذلك من مجهود.

ـ كنت تعيسة من قبل، لكني تخطيت الأمر.

كلماتها المتفائلة لم تقنع أيّ منهما، لكنها رفضت أن تستسلم، فتابعت كلامها: «على أيّ حال، الزمن يشفي الجراح كلها».

بالكاد تجرأت على التنفّس أثناء الصمت الطويل الذي تلا كلامها، فقد أخطأت حين قالت هذه الكلمات الدرامية، وكرهت أن تثير شفقته عليها.

ـ آبي.

أحسّ زاكاري ماغواير ولأول مرّة أنه عاجز تماماً، غير قادر على تصحيح الخطأ الذي، على ما يبدو، أثّر فيهما معاً وإن بنسبة متفاوتة.

www.elromancia.com

هذا الخطأ الذي لا ينوي أن يدعه يستمر، وليعنه الله على ذلك.

ـ آبي.

هذه المرة لفظ اسمها في ما يشبه التأوه، ومدّ يده رغماً عنه يلامس كتفها. كان صوته هادئاً وثابتاً حين تكلّم: «لو استطعت أن أمسح آلامك كلها، لفعلت مهما كلّفني ذلك. أريد أن أجعلك تضحكين، ولا أريدك أن تبكي. أريد أن أسعدك بجنون الحب... لا أظن أنّ يوماً مرّ عليّ من دون أن أفكر فيك، وأشتاق إليك، وأتوق إليك».

جعل الأمور تبدو سهلة للغاية، وكان مقنعاً جداً، ربما لأنها ترغب بشدة في أن تقتنع، لكن... عليها أن تكون مشككة، وإن كان ذلك صعباً.

ـ حتى حين...

إن لم تدافع عن حقوقها فستضيع، وهي ليس لديها من يدافع عنها فاستأنفت كلامها: «حتى يوم تزوّجت بريدجيت، كنت تفكّر فيّ يا زاك؟».

مرت لحظة جليدية قبل أن يجيب: «لا يمكنني أن أجزم عن ذاك اليوم تحديداً. لكن اليوم الذي سبقه والأيام التي تلته كلها».

ـ كيف يمكنك أن تقول هذا؟

لقد أفزعها وصدمها أن تسمع حزنها عالياً وواضحاً في أذنيها. لكنها تابعت تسأله: «كيف يمكنك... أن تخون زوجتك وابنتك؟».

ورفعت رأسها لتحملق فيه باحتقار بارد.

بادلها زاك التحديق، وخيّل إليها أنّ اتهامها له صعقه، لكن هذا... هذا الألم المبرح في صدرها لا يريحه سوى الانتقام... أو الدموع! لكنها لن تدعه يراها تبكي مرة أخرى، وستخفي مدى ألمها مهما كان الثمن. كما أنها إذا ما شرعت بالبكاء، فقد لا تتمكّن من

التوقّف أبداً.

ـ لكن... كاتي ليست ابنتي.

لم تسجّل هذه الكلمات التي قالها بهدوء، على الفور، إذ كانت لا تزال تتصارع مع حاجاتها. اتهامات قاسية أخرى كانت تتشكّل في عقلها، وترتجف على شفتيها، لكن قبل أن تتمكن من النطق بأيّ حرف، تردد صدى صوته في عقلها وبشكل أذهلها...

ـ ماذا.. ماذا قلت يا زاك؟

ـ كاتي ليست ابنتي. ليست من دمي وإن كنت اعتبرها ابنتي. فبعد دقائق من ولادتها، حملتها بين ذراعيّ. ومنذ تلك اللحظة، وهي غالية عليّ وكأنها من لحمي ودمي، لكن... لكن، من حين إلى آخر، أذكّر نفسي... بأني لست والدها الحقيقي.

ـ أحقاً؟

كانت آبي مذهولة، وقد تعطّل عقلها عن العمل. عندئذ تقدّم منها وأوقفها بنعومة، ثم وضع يديه على كتفيها، وراح ينظر بكآبة في عينيها، فشعرت بقلبها يخرج من صدرها. أحسّت بالحزن، وبحنان شديد نحو هذا الرجل الذي عانى الكثير. أرادت أن تأخذ هذا الرجل بين ذراعيها، علّها تشفيه وتشفي جراحها أيضاً.

ـ دعيني أخبرك الحقيقة يا آبي.

جلسا على الأريكة جنباً إلى جنب، ووجد رأسها ملجأ له في تقوّس ذراعه. صدرت عنها تنهيدة فشدّها يدنيها منه أكثر. فمه الذي استراح عند قمة رأسها، راح يهمس أصواتاً مهدّئة، وأخيراً، تكلم...

ـ بعد النورماندي... بعد أن تركتك ذاك الصباح بقليل، تلقيت رسالة مفادها أنّ وضع والدي الصحيّ خطير وعليّ أن أعود إلى البيت فوراً. لذا، وبدلاً من أن أسافر إلى ميلانو، توجّهت إلى بوسطن. في

هذه الاثناء، اتصلت من باريس لأعلمك بما جرى، ويومها تكلّمت مع توم. على أيّ حال، عندما وصلت إلى المستشفى كان والدي في حال أفضل، لكن العائلة تعرّضت لأزمة أخرى بشعة. بعد التفكير في الماضي. . . حسناً، في تلك الفترة، كدت أجن لأنك لم تحاولي الرد على اتصالاتي أو على رسائلي. وفي الفترة نفسها، عادت بريدجيت، وهي الفتاة التي ربّاها عمي باتريك واعتبرها ابنته، إلى المنزل وهي حامل ورفضت أن تعترف باسم والد الطفل. لطالما كنت مقرّباً من بريدجيت، فقد كانت أصغر مني سناً، طفلة عنيدة، ساحرة، أحبها الكل. كنا دوماً متواطئين، منذ بدأت أغطّي هفواتها. عمتي وعمي اعتادا أن يغفرا لها أيّ شيء، كما أنّ باتريك لم يكن يرفض لها طلباً. ولدت بريدجيت وهي تعاني من مشكلة في قلبها، وبالرغم من أنهما راجعا أفضل الإخصائيين إلاّ أنهما لم يتمكّنا من مساعدتها. علما أنها قد تموت في أيّ لحظة، وأنه ينبغي تجنيبها أيّ ضغط نفسي ما يفسّر تسامحهما معها. على أيّ حال، وضعها أثار رعبهما، لكنها قالت إن جلّ ما أرادته في الحياة هو طفل لها، إلاّ أن سبباً آخر ظهر لاحقاً.

حينذاك، طلبت مني، كما فعلت حين طلبت مني أن أقول لوالديها إنها تريد ترك الجامعة، وحين تعرّضت لحادث حطم سيارة أمها. . . طلبت مني، ورجتني أن أساعدها. وكانت قد وجدت الطريقة المثلى للخروج من المأزق. بعد عودتي إلى المنزل بوقت قصير، اقترحت بريدجيت أن أتزوجها. والآن. . .».

ورفع يده مستنكراً ثم تابع يقول: «لا تسأليني كيف وافقت على خطة مماثلة، إذ لا يمكنني أن أشرح السبب. أعلم أنّ المسألة تبدو بأكملها جنوناً، لكني بالكاد فكّرت في الأمر، ووافقت. لعلني كنت أبحث عن مسكّن لآلامي الخاصة، وربما خطر لي أني لن أتزوّج أبداً،

لكن. . . وافقت على اقتراحها وتزوّجنا على الفور. بعد الصدمة الأولى، التمّ شمل العائلة مجدداً. لطالما كنا مقرّبين من بعضنا البعض، فحاولوا أن يقنعوا أنفسهم بأننا ربما نهتم لأمر بعضنا. في الواقع، كان بيني وبين بريدجيت اتفاق، وزواجنا صوريّ وحسب.

في النهاية، كل هذه التفاصيل لم تعد مهمة، إذ لم تحتمل بريدجيت مصاعب الحمل، فولدت كايت بعد ثمانية أشهر بعد عملية قيصرية. بعدئذ، لم تستعد بريدجيت عافيتها أبداً وتوفيت بعد عام. قبل أن تتوفى، تحدّثنا مطوّلاً وكانت سعيدة لأنها ستترك ابنتها في عهدتي. وأنا لست نادماً أبداً، فكاتي ابنتي وبريدجيت تعيش من خلالها».

شعرت آبي أن ليس لديها ما تقوله. ربما ستجد لاحقاً بعض كلمات العزاء، إنما اكتفت الآن بأن تقول: «زاك، أنا فعلاً. . . آسفة للغاية».

ـ لو سارت الأمور بشكل مختلف في النورماندي. . . لما حصل أيّ من هذا، لكن. . .

ـ لكنه حصل.

وتنهدت تنهيدة عميقة ثم أضافت: «يا لعمتك وعمك المسكينين».

ـ نعم. توفي أبي وعمتي بعد وفاة بريدجيت بعام. كان وقتاً عصيباً.

ـ و. . . والد كاتي، هل عرفت؟

واختنق صوتها إذ أدركت كم يعتبر سؤالها تدخلاً في ما لا يعنيها. الصمت الطويل الذي تلا أكدّ لها أنّ ترددها في محله، وأنّ بعض الأسئلة يجب ألاّ تطرح. لكنه تكلم، فزاد من إحساسها بالذنب: «لم أقل هذا الكلام لأيّ مخلوق من قبل، لكن بريدجيت أخبرتني قبل

وفاتها. . . عندما كانت في كاليفورنيا، أدخلت المستشفى وقال لها الأطباء إنها ستكون محظوظة إن عاشت أكثر من عامين. وبدا لها أنّ أملها الوحيد «للاستمرار» هو بانجاب طفل، فقررت أن تحمل. كانت شجاعة للغاية، وكرّست نفسها لطفلتها، رغم أنها كانت حينذاك مريضة جداً. استخدمت مربية كما أمضت عمتي معظم وقتها هنا أثناء غيابي في العمل».

ـ لا بدّ أن الوضع كان. . . محزناً لكم جميعاً.

ـ نعم.

وتنهد حزيناً ثم أردف: «حتى الآن، حين أنظر إلى كاتي، أرى أمها، وأسمعها في بعض الأقوال المضحكة التي تقولها».

ـ و. . . هل كنتما سعيدين معاً؟

سؤال غريب، وربما غير ملائم في ظل الظروف الراهنة، لكن الأوان فات على سحبه.

ـ سعيدان؟

وفكر قليلاً قبل أن يرد: «الجواب صعب. أظن أنّ كل منا قدّم للآخر شيئاً ما في حينه. فالتفكير في وضعها والقلق على الطفل، أخرجاني من بؤسي لفقدانك. وأعتقد أني كرّست نفسي للعمل، لذا. . . إنما. . . سعيدان؟ تقبّلنا الأمر الواقع. وجدنا القوة اللازمة للاستمرار، لأني لولاهما لما استطعت البقاء والصمود».

وبالرغم من أنه لم يجبها على سؤالها، إلاّ أنها أدركت أنّ عليها ترك الأمور على حالها حالياً. ربما ذات يوم ستتمكن من طرح السؤال مجدداً، و. . . جعلتها هذه الفكرة تعرف سعادة لم تعتدها، فهي تعتبره جزءاً من مستقبلها. لكن عقلها تحوّل عن هذه الأفكار على الفور، فهي تفضّل ألاّ تعاند القدر. وحين ضمّها إلى صدره يعانقها، سمحت لأكثر

أحلامها جنوناً بالتحرر من القيود.

ـ أبي.

وانفتح الباب فجأة، ليدخل منه العالم الحقيقي وكاتي التي وقفت تتأملهما للحظة قبل أن تتقدّم نحوهما خطوة. قالت بنبرة من الفضول: «أبي، ماذا تفعل لآبي؟».

كبحت آبي ضحكتها فيما أجاب زاك ابنته: «إني أعانقها وسأعانقك أنت أيضاً إذا ما انضممت إلينا».

ـ حسناً. . . لكن، أليس من الأفضل أن نضيء الأنوار؟

تكلّمت آبي برضا كسول يعكس وضعها النفسي بوضوح: «هل حاولت يوماً يا كاتي أن تري صوراً في النار؟ اعتدت أن أفعل ذلك حين كنت صغيرة. تعالي، ثمة مكان لك إذا ما حشر أبوك نفسه قليلاً».

ـ يسرني ذلك.

وشدها لتلتصق به بحركة حميمة، جعلتها ترغب في الضحك. انضمت الطفلة إليهما وراحوا يراقبون ألسنة النار معاً ليصفوا ما يرونه كل بدوره.

بعدئذ، لعبوا بإحدى الألعاب التي وجدتها كايت تحت شجرة الميلاد، ثم صعدوا إلى غرفتها حيث بدّلوا أثاث بيت الدمية.

وبما أنّ كايت نامت بعد الظهر، خشيت آبي أن تبقى مستيقظة إلى ما بعد خلود الراشدين إلى النوم. لكن زاك حملها أخيراً إلى فراشها، ما أعطى آبي فرصة لتستحم وتبدّل ملابسها بما يتناسب مع مزاجها الذي تغيّر بشكل جذري اليوم.

أكّدت لصورتها في المرآة وهي تجفف شعرها أنها لا تريد أن تتوقع الكثير، لكنها وببساطة. . . واضطربت معدّتها من شدة الإثارة. ارتدت تنورة سوداء قصيرة وأنيقة مع قميص مناسب. بدت مسترخية حين

تراجعت إلى الخلف لتتأمل نفسها في المرآة. . . وضعت لمسة أخرى من الماكياج على رموشها، ومسحة من أحمر الشفاه الذي جعل فمها يبدو مثيراً، ومن ثم القليل من عطر كاتي فبدت رائعة كرائحتها. أملت أن يلاحظ الآخرون ذلك. والآن، إلى الطابق السفلي حيث ينتظر زاك الذي وعدها بتحضير وجبة خفيفة لهما.

لم تجد أحداً في المكتبة، لكن النار كانت مشتعلة في المدفأة والانغام الناعمة تنساب في الجو، ما جعلها تقشعر. . . أحست بلمسة على خصرها وأدارها لتواجهه.

ـ مرحباً.

ـ هل نامت؟

نبرتها المبحوحة تعارضت مع رغبتها في أن تكون عملية.

ـ نعم. وأرجو أن تتأخر في النوم صباحاً.

لم تجرؤ على الرد، فالتزمت الصمت.

ـ من المفترض أن تسأليني عن السبب. عندئذ، سأقول لك، لأني أريد أن أسهر معك طويلاً. . . أتحدث إليك. . . أعانقك.

وأخذها بين ذراعيه ليعانقها بشوق السنوات الخمس. وأدركت ما يشعر به، فدنت منه أكثر.

عبست حين رأته يبتسم، وقرأت الخطر في عينيه، فسألته: «ماذا قلت؟».

ـ قلت إني وعدتك بالطعام. . . لا بدّ أنك جائعة.

ـ آخر ما أفكر فيه الآن هو الأكل.

جلسا جنباً إلى جنب على الأريكة قبالة النار. شعرت بالدفء، وخطر لها أنّ الألم الذي عاشاه، خدم هدفاً، فقد قادهما في هذا الاتجاه، نحو السعادة والفرح المطلقين.

ـ آبي.

كان نداءً معذّباً لم تتوقع أن تسمعه من زاكاري ماغواير، نداء توق متألّم، فأرجعت رأسها إلى الخلف تتأمله وراحت تردد اسمه.

وفجأة، تذكّر شيئاً ما فمدّ يده إلى الطاولة الصغيرة، ليلتقط غرضاً تدلّى والتمع حين رفعه أمام عينيها. وللحظة، لم تستطع آبي أن تركّز، لكن الوميض الذهبي اتخذ شكل قلادة، حلية من الخيوط الذهبية المتشابكة تتمايل في طرف سلسلة رفيعة.

قال زاك مؤنباً وبمحبة: «هذه كانت هديتي لك، الهدية التي أعدتها لي بازدراء».

فهمست: «أنا آسفة، سامحني، سأفعل أيّ شيء لأثبت لك مدى أسفي. . .».

ـ لقد جرحتني جرحاً عميقاً.

ـ قل لي. . . كيف أظهر لك مدى أسفي.

ودنت منه أكثر، فساد صمت مشحون بينهما. ثم قال بتصميم متزعزع: «أريدك أن تضعيها».

عبست آبي وسألته: «أهذا أمر؟».

ـ نعم. وإلاّ. . .

ـ إذا وصل الأمر إلى حدّ التهديد. . .

وأحنت رأسها بحركة خضوع ساخر، لتسمح له بوضع السلسلة حول عنقها. مدّ يده ليلمس بإصبعه قفلاً صغيراً عند طرف الكرة وقال: «وهذا مفتاح لعلبة صغيرة مميزة، فإذا ضغطت عليه سيتفتح و. . .».

بذلت جهداً كبيراً لتركّز على كلامه وتسلخ نظراتها عن ملامحه الرائعة، القريبة منها. سألته: «ماذا قلت يا زاك؟».

ـ اضغطي عليه لتري ما في داخله.

وفجأة، انفتحت الكرة وسقط في يدها شيء صغير، لماع. ووجدت نفسها تنظر إلى خاتم من الذهب الخالص، تتوسطه ماسة كبيرة.

ـ زاك؟

لم تجد كلمة أخرى تقولها. رفعت عينيها عن الخاتم ونظرت إلى وجهه متسائلة، من دون أن تجرؤ على تقبّل الفكرة المجنونة التي خطرت لها فجأة.

ـ أبي.

بدا الآن جدّياً بعد أن كان يضحك منذ قليل: «أريدك أكثر مما أردت أيّ شيء في حياتي. أريدك أكثر مما أردتك حتى في النورماندي و. . . أؤكد لك أني أردتك حينذاك. لكن الآن، وبعد هذا الوقت كله، وبعد هذا العذاب، إذا لم تقولي إنك ستبقين معي إلى الأبد، وإنك ستتزوجيني، أنا. . . فلا أدري كيف يمكنني أن أعيش».

شعرت وكأنها قد تستفيق من حلمها هذا، فقالت بتردد: «و. . . اشتريت هذا الخاتم. . . لي، يا زاك؟».

ـ منذ فترة طويلة.

لم يكن ينوي إخبارها بذلك، لكن الكلمات انزلقت من بين شفتيه رغماً عنه، فتلاها صمت طويل فيما توصّلت هي إلى استنتاجاتها الخاصة.

بدت مرتبكة، مرتجفة فأمسكت بالقلادة وسألته: «أتعني. . . لكن لا يمكن أن تعني. . .».

ـ أعني أني وضعت القلادة في خزنتي مدة خمس سنوات. لم أشأ أن يراها أيّ شخص آخر.

قالت بصوت غير ثابت فيما ترقرقت الدموع من عينيها: «آه، زاك.

ألي أنا؟».

ـ ولمن غيرك؟ لكني أعترف بأني لم أتوقّع أن تعاد إليّ مع تلك الكلمات القاسية. وكل هذا لأني لم أتوقف عن حبك، سنة بعد سنة، وبصبر.

ـ زاك، أنا. . .

ـ لا سيّما وأني تعبت لأجد شيئاً يناسبك.

ـ . . . أنا آسفة للغاية يا زاك، ولا عذر لما قلته. قلته لأؤذي نفسي بقدر ما سعيت لإيذائك.

ـ حسناً، كما قال أحدهم ذات مرة، لقد نجحت أكثر مما تصوّرين.

احمرّ وجهها، فالتجأت إلى صدره تخفي وجهها فيه، وابتسمت لنفسها سعيدة وهي تسمع دقات قلبه المتسارعة. سألته بدلال: «هل عنيت ما قلته حين قلت إنك لم تتوقف عن حبي، سنة بعد سنة؟».

الحنان الذي تجلّى في كلماتها جعله يتوق إلى معانقتها.

ـ عنيت كلامي حرفياً.

واختفى الحزن والمرارة وكأنما لم يوجدا يوماً. رفع وجهها إليه يتأمل ملامحها، فشعر بالحرارة تجتاح جسمه، بتيار غامر من الإثارة والشوق يتملّكه. أزاح الشعر عن الوجه الرائع وسألها بصوت جعله التأثر أجش: «إذن. . . هل ستدعيني أضع هذا الخاتم في إصبعك؟».

وكان ردّها أن فتحت اليد التي أمسكت بالخاتم بشدة، وتركته يأخذه ليضعه في إصبعها. عاشا لحظة من السعادة الغامرة، لحظة سحرية مثالية، لكن. . . هل كادت هذا الصباح. . .

ـ زاك!

انفعالها الشديد أبرز لكنتها الفرنسية فيما كانا يتأملان لمعان الحجر

الكريم في إصبعها الرفيع. رفعت عينيها إلى عينيه المشعّتين، فعلم أنّ زمن الانتظار قد ولّى، وقالت: «الأمر كان مماثلاً لي. أحببتك... ولم أحب سواك... إلى الأبد».

ضمها إليه بلطف في البدء، ثم عانقها بشغف ليحملها معه في دوامة من الفرح والأمان... في الطريق إلى السعادة المطلقة.

***

١١ ـ ضوء القمر

وبعد حوالى أسبوع، كانت آبي تسير ويدها على ذراع باتريك اوبراين، باتجاه القامة الفارعة الواقفة عند آخر السجادة الزرقاء. كان ثوبها جميلاً في بساطته، وقد حملت في يدها باقة من الورود البيضاء مشابهة لتلك التي رفعت بها شعرها بعيداً عن وجهها. مشت خلفهما اشبينة العروس الصغيرة والمتحمسة، في ثوب أبيض من القطن يحيط بخصره زنار من الحرير.

أمامهم، وخلف زاكاري واشبينه، كان المحيط يهدر من دون توقّف فيما تكسّرت أمواجه على الرمل الشاحب فبدا الزبد كالثلج الذي خلّفوه وراءهم في بوسطن.

ـ هل أنت بخير يا آبي؟

اهتمام باتريك ولطفه كانا التأكيد ما تحتاجه لتدرك أن عائلته ليس لديها أيّ تحفّظات على زواجهما. وهما يؤكدان ما قاله سابقاً في الحديث الذي جرى بينهما حين عاد من رحلته.

ـ كل ما أريده الآن في الحياة هو أن يكون كاتي وزاك سعيدين كما يستحقان، وإذا تزوّج المرأة المناسبة... أنا أدين له بالكثير.... كما أني معجب به كثيراً... وإذا استطعت أن تعوّضيه عن كل ما مضى، فسأحبك من أجل ذلك. بقي يبحث عنك...

وفاجأته مشكلة في حنجرته، لكنه أردف بعد حين: «... لفترة

طويلة، ويسرّني أنه وجدك».

الموسيقى التي تُعزف في الأعراس لم تبدُ يوماً فرحة كما بدت اليوم. وها هو زاك يلتفت إليها ويبتسم للامرأتين اللتين تملآن عليه حياته، فيما عكست عيناه إعجابه وحبّ التملك لديه. تبادلا العهود وهما يتبادلان نظرات متواطئة سعيدة.

بعدئذ، أطبقت أصابعه على أصابعها فيما راح الكاهن يتكلم: «زاكاري جون ماغواير، أتقبل بأبغيل بريوني جرفيه زوجة لك؟».

ـ أقبل.

واشتدّ ضغط أصابعه، وابتسم ابتسامة تتحدّى أيّ شخص ليحاول منعه. وكان عزمها على قدر تصميمه حين أعلنت أنها تقبل بالزواج من زاكاري جون ماغواير، وبأن تحبه إلى الأبد.

بعدئذ، حان موعد مأدبة العرس والخطابات والرقص في النادي الجامايكي الخاص حيث أقيم الزفاف، ومن ثم حلّ موعد رحيلهما إلى الملجأ السري الذي أعارهما إياه باتريك ليقضيا شهر العسل. شعرت آبي بغصة حين رأت كاتي تقف قرب جدها، بدأ بيد، تلوّح لهما، فقالت: «آمل أن تكون بخير...».

ـ ستكون بخير. فهي وباتريك صديقان، كما أنّ جورجيا ستبقى معهما. يمكننا لاحقاً أن نصطحبها معنا، لكن كل ما أريده الآن هو أن تكوني لي وحدي... حسناً. لنقل لسنة أو اثنتين على الأقل.

وعبّر عن شعوره هذا بشكل أوضح حين وصلا إلى الفيللا التي تشرف على أجمل خلجان جزر الكاريبي. ولاحقاً، حين وقفا على الشرفة يراقبان انعكاس صورة القمر على المياه الصافية، همس لها: «دعينا نعقد اتفاقاً. كلما اختلفنا ولو اختلافاً بسيطاً، نأتي إلى هنا

لنتصالح. عندئذ، يمكنني أن أذكّرك كم كنت سعيداً لأني وجدت عروسي».

استدارت بين ذراعيه تواجهه وقالت بغنج: «أنت تجبرني بذلك على افتعال الخلافات دوماً».

وعندئذ، غرقا في عناق محموم...

***

www.elromancia.com